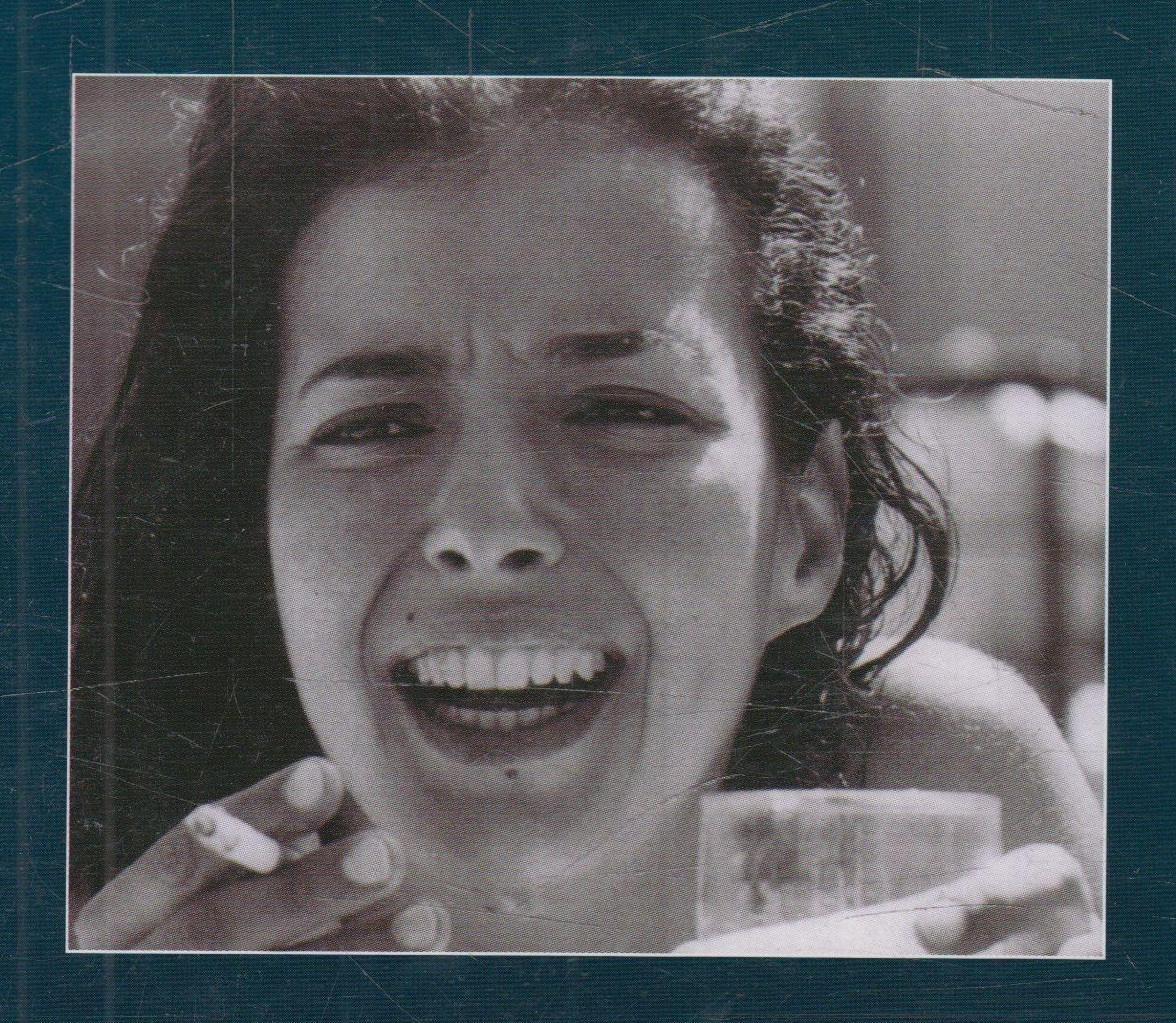
سيرة

سُكَيْنة أوفقير

الحياة بين يَدَيّ

طفولة في سجون الحسن الثاني



ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

شكَينة أوفقير

الحياة بين يديّ

العنوان الأصلي للرواية:
Soukaïna Oufkir
La vie devant moi

الكتاب
الحياة بين يَدَي
طفولة في سجون الحسن الثاني
تأليف
سكينة أوفقير
ترجمة
حسين عمر
الطبعة
الأولى، 2008
عدد الصفحات: 192
القياس: 15× 22.5
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-340-9

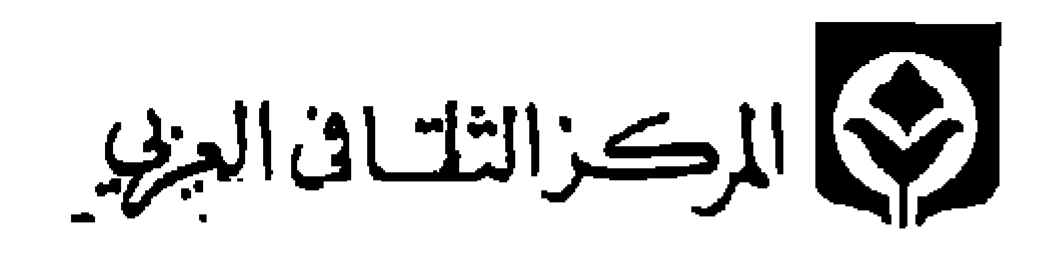
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص .ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 - 2307651
فاكس: 2305726 - 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص .ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01750507 - 01352826
فاكس: 01343701 - 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

سُكَيْنة أوفقير

الحياة بين يديّ

ترجمة

حسين عمر



مقدّمة

أكتب هذه الصفحات لأنني في منتصف الطريق حتى قبل أن أشرع في الحياة.

أكتب هذا الكتاب لأنني عشتُ كثيراً. بل وكثيراً جدّاً.

أكتب هذا الكتاب لأموت وحيدةً. فخورةً. منتصبةً. أبيّة على ما أتمنّى. هادئةً. سعيدةً.

لكلٍّ طموحاته، وعيوبه، ومباهج تجربته.

لا أكتب هذا الكتاب لكي يحسدني الناس أو يشفقوا عليّ أو يجدوا أنفسهم في مصيري.

لا أكتب هذا الكتاب ليعجب الناس بي. وفي كلّ الأحوال، ليس لإثارة الإعجاب بمقاومتي في تحمّل المحنة، والمصائب، بكلّ بساطة، لأنّنا نتحمّل كلّ شيء، كلّ شيء، حينما لا يُترَك لنا من خيار.

قبلتُ كتابة هذا الكتاب لأنني بقيت على قيد الحياة. ولأنني اخترتُ الحياة.

بعد البيرة المئة والخمسين، لامستُ قاعاً للحقيقة: لا أكتبُ هذا الكتاب لا لي ولا لكم، وإنّما لها. هي.

هي، التي أجادت على الدوام العيش بهدوء. وحيدة. فخورة. منتصبة. أبيّة. سعيدة. تلك التي لم تُعِد حسابات، ولم تُطالب بذلك. ريشة بيضاء ممدّدة على الأفق، نسمة، موجة، ريح وتيار هوائي، شعاع مسفّ، حبّة رملٍ على كلّ الكثبان، ابتسامة، قهقهة، تبوّل في المسبح، قبلة خاطفة. هي، هي الأفق.

أكتب هذا الكتاب لها، لها وحدها.

هي أجمل ما فيّ.

أكتب من أجل حيواتنا الأسطورية والدمعة المنسابة منها. الدمعة التي تُمسَح وتجري من جديد، العاهرة الصغيرة. الدمعة التي تعود مرّة أخرى رغم تحذيرها، التي تختنق ونمسَحها بمعصمينا.

أكتب هذا الكتاب بكلّ ما قد يبقى لي من عيوب، من أسئلة في العيوب، أكتب هذا الكتاب لها. هي، كنزي الصغير، الطفلة التي كنتها.

أكتب حياتها لأنّها الوحيدة التي تركت لي كلّ الحياة.

الفصل الأوّل

تسعة أعوام

أحبّها كثيراً، تلك الفتاة الصغيرة. إنّها تبرز شيئاً ما مشتركاً ومع ذلك مستحدثاً. مزيجاً بعيد الاحتمال من البُنيّة، من الصبيّ الشرّير - ليس من أولئك الذين نُعجَب بهم، وإنّما من أولئك الذين قد نغتابهم بمتعة -، من السنّوري الضعيف والعجوز غير الناضج. وأيضاً من المهرّج أحياناً، والبهلوان غالباً.

أحبّ كثيراً قامتها الفارعة، نحافتها، خدّيها المكتنزين - كخزنة أطعمة للأزمنة الصعبة - المحيطين بأنفٍ ناعمٍ، كان سيبدو طويلاً جداً لو لم يُخْفَ بذقنٍ مائلٍ.

إنّها في الخامسة من عمرها. تعود ذكراي الأولى عنها إلى الزمن الذي كنّا نلتقي فيه معاً في حديقة ذويها لنلعب بالكُلل[1] أو بإشعال نارٍ بسيكار والدها.

آنذاك، كانت تعتقد أنّها صبيّ لم يكن أحدٌ يصدّقها. وحينما تُحبَط من عمى وصمم البالغين، كانت تحشو سروالها الداخلي بورق المرحاض. تُخرج قسراً بشدّها من شعرها من المراحيض

(1) كرات زجاجية صغيرة ملّونة.

العامّة للصفوف المتوسّطة. قصّت شعرها، ونالت حزاماً برتقاليّاً في الجودو وميدالية ذهبية في مسابقة مدرسية شارك فيها مراهقون ممشوقون.

نالت، بكثرة، لقب الفتاة المسترجلة. كانت صغيرة جدّاً لكي ترتكب الخطأ. المأزق. كانت صغيرة جدّاً وسعيدة جدّاً بلقبها الجَديد، حتى وإن لم تحظَ قط بدخول مراحيض الصبيان.

اليوم، لم نعد من العائلة نفسها، من الطبقة نفسها. حينما جمعتنا الحياة، تعلّقت تلك الطفولة، تلك الطفلة بساقيّ لتجعلني أمشي بطيشٍ على الإسمنت.

وحينما أتعب، أتذكّر فقط أنني أحبّ كثيراً تلك البُنيّة.

طبعاً، حصل أن أغضبتني غضباً شديداً، وأثارت تعاطفي، وأزعجتني للغاية بذلك الجانب منها لكونها المجلّية في الصف، والأثيرة عند كلّ المعلّمات، ذلك الجانب الصقيل، المتساهل للغاية، ذلك البحث المبكر عن الحبّ بكلّ ثمن، بأيّ ثمنٍ كان، طريقتها في حفظ دروسها عن ظهر قلب دون أن يُطلَب منها ذلك، صمتها المحترِم أمام الأشخاص الكبار، ومثابرتها على مصّ إبهامها أمام البشرة اللطيفة لسيّدة ستكون قد اختارتها ضمن المجلس، مثلما تجيد القطط الالتفاف على نفسها على مبايض بطنٍ يتألّم عبثاً.

شيءٌ واحدٌ مؤكّد، أغفر لها باستمرار، أو أكاد. لا شكّ لأنني كبرتُ على نحوٍ أسرع. أو فقط لأنّها تجعلني أسخر من نفسي.

أحبّها حينما تهزأ من ربلتي ساقيها الشبيهتين بساقي اللقلق،

من مخّها الشبيه بمخّ صانع الكسكسي، من نجمتها المنكّسة، من استقامتها الواهية والقديمة.

أحبّ رؤيتها في الحياة. أحبّ رعونتها، وخطواتها الخاطئة، وتمرّدها، وخبثها، وحقدها وسوء نيّتها كضحية.

لو أنني ترعرعتُ قبلها أو أسرع منها، ما يدريني، ليس بوسعي أن أنكر جهودها في السّعي للاستمرار.

بإيقاعها.

حينما وقعتْ في حبّ ابن المدير، كفّت عن أن تكون صبياً.

قبلت أن تمارس الرقص الكلاسيكي. كانت دائماً تبكي حينما كانت مربّيتها ترغمها على ارتداء أثواب بياقةٍ إضافية وأحذية مبرنقة، ولكن كان حبيبها جديراً تماماً بتنكّرٍ. كان في الثانية عشرة من عمره، وهي تصغره بثلاث سنوات. رأيتها تقف على رؤوس أصابع قدميها لتلمحه بين صفوف الكبار. حينما حضر عيد ميلادها التاسع في شهر تموز (يوليو)، غدت فتاةً حقيقة، له وحده.

لم تكن تدري بعد أنّ ذلك سيكون عيد الميلاد الأخير لها. سأعلم صدفةً بعد عشرين عاماً من ذلك بأنّ مارك قد قُتِل في حادث سيارة. ما كان لهما أن يلتقيا مرّة أخرى.

هو قضى على نحوٍ مأساوي في العشرين من عمره؛ أخيراً، بضع سنوات زائدة أو ناقصة، بقي أنّه قد مات في العشرين من عمره. يبدو أنّ مراهقته كانت صاخبة...

أمّا هي، كيف لي أن أقول، فقد اختفت بعد خمسة أشهر ويومٍ واحدٍ من عيد ميلادها التاسع. في 23 كانون الأوّل

(ديسمبر) من عام 1972. عشية عيد الميلاد. كانت مرّة أخرى في تلك السنة من بين الأوائل في الصفّ الثاني الابتدائي واستطاعت أن توصي بابا نويل - الذي لم تعد تؤمن به - بكل ما كانت تريده، مثل كل الأعوام الأخرى: دراجة، وسفينة تُنفَخ بالهواء، ودفتر رسم، وأقلام تلوين، وقارئة أسطوانات.

الفصل الثاني

انتهت العطلة الصيفية

كنتُ أتظاهر بأنني في قيلولة، في بيتنا الخاصّ بالعطلة الصيفية على شاطئ المتوسّط، حينما دقّت أمّي الباب. كانت أمّي دائماً تدقّ الباب قبل أن تدخل. كان عليّ أن أُسرع. أن أُسرع كثيراً. أن أرتدي سريعاً لباسي وأعدّ سريعاً أمتعتي وأستودع سريعاً زملائي وزميلاتي على الشاطئ وأستعدّ سريعاً لسلك طريق العاصمة التي وقعت فيها للتوّ أحداثٌ خطيرة.

«أحداثٌ خطيرة كتلك التي وقعت في السنة الماضية يا ماما؟»

انتهت العطلة الصيفية.

في الصيف الماضي، قبل نحو شهرٍ من هذا التاريخ، أراد أشرارٌ إيذاء الملك، بل وقتله. تصوّروا، لقد أرادوا قتل الملك في يوم عيد ميلاده! حتى أنّ قتلى قد سقطوا، بلغ عددهم نحو مئة، وأقداح الشامبانيا في أيديهم. دافع والدي عن الملك الذي يحبّ، فلم يُقتَل. وبقي على قيد الحياة. ولكن كان بوسع الأشرار أن يعودوا. كان هناك حرّاسٌ في كلّ مكان، في بيتنا

الواسع، الكثير من الحرّاس، أكثر مما في العادة. حرّاسٌ مسلّحون، مسلّحون بإفراط، بأسلحة وظلالٍ أكبر ومرئية أكثر. أسلحة وحرّاس لدرجة لم نعد نعرف ماذا نفعل بهم، ما يقارب مئة حارسٍ لحمايتنا، أنا وعائلتي كلّها. حركة دؤوبة جيئة وذهاباً وأجهزة اتّصالٍ لا تكفّ عن الصرير حتى مطلع النهار، وأرواحٌ متهيّجة بالإرهاق والخوف. كان هناك حول المسبح شائعات وتخيّل وهرمون الأدرينالين ووشوشات وأمل. سيكون النصر كما في كلّ مرّة معقوداً في النهاية على كتف والدي.

ثمّ كان الحزن في منتصف النهار عندما شاهدتُ واحدةً من زميلاتي وهي تسحق بمتعة متناهية رتلاً كاملاً من النمل تحت شجرة سرو. شجرة سرو في حديقتي:

«- لماذا تقتلين هذا النمل الذي لم يؤذِك في شيء؟

- لأمنعها من أن تأكل جثّة والدي.

- أَليس والدك في السماء؟ والدك في السماء. والدك؛ إنّه في السماء منذ عام.»

لقد تأخّر النمل كثيراً.

انتهت العطلة الصيفية، وجاء دوري.

ساد اضطراب، صدرت أوامر وأوامر مضادة، وحضر مركبٌ لأصدقاء أسبان لنفرّ به من البلاد ما دام الوقت متاحاً، ولكنّنا تلقّينا مكالمة تطمينية من والدي لإقناعنا بعدم القيام بأيّ شيءٍ من ذلك. والدي، إنّه الأقوى، إنّه محقٌّ على الدوام. ولكن لم يكن

أولئك البالغون الذين بدوا فجأةً ظرفاء وحاضرين وودودين يَدَعون شيئاً يبشّر بالخير.

كانت هناك مسافة الطريق، ووالدتي التي تذرف الدمع خلف النظارة السوداء الضخمة، وحادثة سيرٍ مأساوية أمام سيارتنا تماماً، وأثر الفرامل التي ما زالت تصرّ سوداء في ذاكرتي الثاقبة، وقد نجا كلٌّ منّا، وسيارات إسعافٍ متأخّرة، استأنف الموكب سيره، ظلّت أمّي تبكي صامتة، وأيادٍ ممدودة براحاتٍ مليئة بأقراصٍ وارتعاشاتٍ، قارورة مياه معدنية والوصول إلى البيت.

كان الحشد كثيفاً.

كنتُ معتادة على هذا العدد الكبير من الناس في بيتنا. كان يومياً تقريباً، يُستَقبَل أشخاصٌ بالزيّ الرسمي أو التقليدي بمناسبة أعيادٍ أو تعميدٍ أو زواجٍ أو ختانٍ أو حفلة شاي أو جلسات عملٍ. في ذلك اليوم، كانت الألبسة تتلألأ، وكانت الجلابيب التقليدية بيضاء بالكامل، ولكنّها كانت تُخفي وجوهاً ممتقعة ومكفهرّة مثلما تتطلّب آداب المناسبة.

ساد الحدادُ البيتَ الكبير. لقد مات الأب الأقوى. هرع المرافقون لفتح أبواب الليموزينات. كنتُ أسمع صرخات، صرخات بكاء، وأخذتني مربّيتي لتلبسني لباساً مناسباً. مُنِعتُ بذلك من إلقاء النظرة على جثمان والدي. لقد أُبعدت. صغيرةٌ. صغيرةٌ جدّاً.

عند عبوري لفناء الدار، مأخوذة بالهستيريا، أتيح لي الوقت لألمح منصّات وُضِعَت فوقها علبةٌ لامعة. وكان كلّ شيء في فناءٍ مشمسٍ مكتظٌّ بنائحاتٍ مدرّبات.

صورةٌ محفورة في ذهني. صورةٌ ظلّت سليمة، أُشير إليها فيما بعد من خلال تعليقات البالغين، الذين استطاعوا أن يغدقوا في ذلك اليوم على والدي بقبلات أخيرة. كانت روايتهم إجماعية وغير قابلة للنقاش: كانت ابتسامة جامدة على شفتي والدي، ولكنّه كان يبتسم. اخترقت الرصاصة الأولى ظهره وجعلته يبتسم. ابتسم لِمَن كان يواجهه، الملك، صديقه، مصدر ألمه. ابتسم لِمَن لم يمتلك لباقة أن يُطلق عليه طلقة واحدة، دون أن ترتعش يده على المقبض، طلقة رحيمة واحدة بين العينين. طلقة واحدة، مثلما كانت تُطلق فيما مضى بمهارةٍ وبلا أنين بين أصدقاء خائبين، بين أعداء من أسرة فاضلة.

لا أهمية لذلك، فقد مات أبي.

«نجا والدك من حروبٍ كثيرة وكان يفرط في التدخين. كان لا بدّ لوالدك أن يموت شابّاً وقد مات مبتسماً. الوجه متشنّج وباردٌ جدّاً، جدّاً، باردٌ جدّاً.» كانت تلك علامة الوفاة الوحيدة. درجة حرارة صقيعية. «بعد ست وثلاثين ساعة من وفاته، لم تَفح من والدك، والدك، أيّ رائحة جثّة، في عزّ شهر آب (أغسطس). هل تفهمين؟»

الواقع سحريٌّ.

كانوا يعلّلون تلك الظاهرة بواقع أنّ والدي - أخيراً كان - سليل النبي، منقذٌ محتَمَل، شهيدٌ مؤكّد لكونه قد قُتِلَ. والجميع يعلم أنّ الله ينهى عن القتل.

لم يُهيّئني أحد لآثار صدمة الطلقات على ذلك الوجه الأبوي، الباسم، وعينه المفقوءة من الخلف، وزجاجة محطّمة

من نظارته، وجسده المسجّى على الأرض، متشنّجاً، خائراً وبارداً جدّاً بحيث لم يأخذ حتى الوقت اللازم ليتفسّخ في عزّ شهر آب (أغسطس)، بعد ست وثلاثين ساعةٍ من انتحاره بخمس طلقات في الظهر.

وسوف تتكفّل كتبٌ وصحفٌ غربية بالتركيز على التفاصيل.

وسوف أكتشف ذلك فيما بعد. فيما بعد ذلك بكثير.

آنذاك، أخذتُ الوقت لكي أكبر. أخذتُ كلّ وقتي.

بإيقاعي أنا.

ألبستني مربّيتي جلباباً أبيض، لون الحداد المحلّي. وكذلك بابوجين أبيضين. لباس صبيّ. واخ! واخ! واخ! «متأسّفة، يا سيّدتي، تحت وطأة الاستعجال، لم نجد لباس حدادٍ لفتاةٍ بطولها.» واخ!

ها أنا إلى جانب أمّي في الصالون الفسيح لتلقّي مظاهر التعاطف والتعازي المعتادة.

كنتُ فرِحة. فخورة، فخورة جدّاً بكوني اعتُبِرتُ صبياً! كنتُ فخورة وسط تلك القاعة الفسيحة المكتظّة بالناس، بكوني ممثّلة شرعية للعائلة بنفس صفة أخويّ، وبكوني أبيّة، بناءً على طلب أمّي، أي دون بكاء علناً مثل أمّي، وبعيدةً عمّا خصّني به القدر الذي لم يكن بإرادتي، الولد الخامس من أصل ستّة، العجلة الاحتياطية لعربةٍ، لعربة ستبلغ عدّنا قريب نهاية السباق.

الفصل الثالث

23 كانون الأوّل (ديسمبر) 1972

كانت الإشارات الضوئية لسيارات الشرطة المركونة إلى قارعة الطريق على مسافة منتظمة تؤكّد مرورنا دون حوادث ثمّ ترجع القهقرى.

أُنجِزَت مهمّتها.

وكانت السيارات التي تقلّنا إلى غايتنا تردّ بالإشارات الضوئية نفسها: كلّ شيء يجري على ما يُرام، لا مشكلة، الضيوف هادئون. RAS(*).

صحيح، كان كلّ شيء يجري على ما يُرام. لم يعد الحرّاس والمواكب والأمن والحماية ومواكب الشرف الخاصّة بالشخصيات الرفيعة يفاجئون الشخصيات الهامّة. الملك هو من أمر بأن نكون في مأمن. تكفّل الملك بحمايتنا، مثلما كان يجيد حماية كلّ أفراد عائلته. كنّا نُعتَبر منذ تلك اللحظة كأفرادٍ من العائلة الملكية، ولذلك كان يتمّ اقتيادنا إلى مكان آمن تحت حمايته الأبوية والإلهية.

(*) RAS وتعني: Rien à signaler وهي عبارة تستخدمها الشرطة لتقول: كل شيء على ما يرام.

جاؤوا ليعلنوا لنا في بداية الأمسية الشرف الذي يمثّله اهتمام الملك، في 23 كانون الأوّل (ديسمبر) 1972، بعد أربعة أشهر وعشرة أيام من وفاة والدي. إنها «العدّة» وهي مدّة الحداد التي تؤكّد للأرملة المسلمة أنّها ليست حامل من زوجها المرحوم. الطب والصور الإشعاعية وحالات الغثيان، لا شيء يبرهن أيَّ شيء كان، والآيات القرآنية ثابتة. بالنسبة للأرملة، يُجيز العرف أن ترفقوا تعازيكم بالمجاملة عبر عبارة مناسبة تماماً: «جدّد الله مضجعكم.» بل ويمكنكم إضافة: «بأسرع وقت».

بعد فترة الحداد، اعتُبِر أنّ الورثة قد اكتملوا. ولأنّ والدتي لم تكن حامل، كان بمقدورهم أن يحصوا الملاعق الصغيرة.

وقد أحصوا حتى آخر ملعقة فضيّة صغيرة.

ثمّ جاؤوا في طلبنا.

أحاطت شاحنات صغيرة بيضاء مشطوبة بخطوطٍ حمراء وخضراء بالجهات الأربعة للحديقة الواسعة. وتدفّق حرّاسٌ ليشكّلوا حلقة لا يمكن عبورها من حول البيت الكبير. كانت كمية السلاح هائلة. وقد اضطرّوا لتغيير عياره. كما تغيّرت نظرتهم. فباتت قاسية، على مستوى مسؤوليتهم. سرت القشعريرة في اليتامى القاصرين. كانوا الحرّاس أنفسهم، ولكنّهم مختلفين.

جاؤوا في طلبنا لنقلنا إلى مكانٍ آمن.

كان يحقّ لنا أن نجلب معنا ألبسةً وأغراضاً شخصية وكلّ ما نريد سوى ذلك وبقدر ما نريد. المدّة؟ غير محدّدة. المكان؟ سرّي. الهدف؟ إبقاؤنا على قيد الحياة. الأعداء؟ البلاد برمّتها.

الله؟ الملك. المختارون؟ أمٌّ وأولادها الستّة (أربع بنات وصبيّان) ابنة عمّ أمّي وحليمة، التي حلّت محلّ أختها التي ذهبت في إجازة ومربّية أصغرنا البالغ ثلاثة أعوام ونصف.

تسعة مختارين للرحلة الكبيرة.

طوال فترة الحداد، أربعة أشهر وعشرة أيام بالضبط، لم تعد الأبواب تُفتَح. قضى أحد أخوالي بقسوة في الثالثة والعشرين من عمره في حادث سيارة بعد أن استُجوِب حول المصير المقدّر لنا واتُّهِمَ بأنّه قد أطلع الصحافة الأجنبية على ذلك. لم يُسمَح لنا بحضور مراسم الدفن. ولم يعد يُسمَح لنا بالذهاب إلى مدارسنا.

يا مارك، يا ماركي الجميل، إلى اللقاء!

حسنٌ، لقد اخترتُ حديثاً فرداً من العائلة الملكية، لم أعد أصدّق بابا نويل، ولكن ماذا أفعل بالهدايا المرمية أسفل شجرة التنوب؟

فصلونا في مجموعة من اثنين، ثلاثة، أربعة - لم أعد أدري- بالسيارة.

لم تكن هناك سيارة ليموزين تلك المرّة، أتذكّر ذلك جيّداً.

بعد أربع- خمس ساعات من مخور الليل بين نداءات مكبّرات السيارات ومصابيحها، شعرتُ بالرغبة في التبوّل. لم أكن الوحيدة التي كانت بحاجة ملحّة إلى ذلك. كانت إذاعات السيارات تشرع في رفع الصوت مع أجواءٍ من الرعب والذعر. مفاجأة كبيرة. مع ذلك كان كلّ شيء قد حُسِبَ ونُظِّم بعناية وأُعدّ بدقّة، إلاّ التوقّف للتبوّل.

أبقيتُ فخذيّ مشدودين إلى بعضهما طوال الوقت المجنون الذي سيستغرقونه لِدَوْزَنة كمنجاتهم.

طرقات ترابية، ارتجاجات، توقفات مفاجئة، توقّف الموكب أخيراً وسط منطقة ريفية. انتشرت القوات، تلألأت بقعٌ بيضاء، كانت الأغصان المتقصّفة تلمع بين الحصى. أُنزِلنا. دارت الأرض من حولنا. صرخ أحدهم: «كل اثنين معاً! كل اثنين معاً!» كان كلّ واحد من بيننا محاطاً بسبطانتين رفيعتين مثقوبتين. كانت بنادق رشاشة. كنتُ مولعة بالبنادق الرشاشة. صرخ أحدهم: «كل اثنين معاً!» احتجّت أمّي على انتهاك الخصوصية. هدّد أحدهم بإعدامٍ بلا محاكمة. ما عادت أمّي تحتجّ على انتهاك الخصوصية. قرفصنا قبل إنزال سراويلنا الداخلية. أنزلنا السراويل، البنات خاصّة، في ظلّ البنادق الرشّاشة. تبوّل أخي البكر واقفاً، وحده مع فوهات أربع بنادقٍ مصوّبة على صدغه. لن يكون بروتوس بعيداً أبداً بعد الآن. كان، وهو البالغ بالكاد الرابعة عشرة من عمره، خطراً داهماً. التمييز هنا طبيعيّ، فالوارث الذكر يحظى بضعف حصّة الأنثى، وهذا أيضاً مكتوبٌ في الآيات المُحكَمات. ظلّ أحدهم يصرخ لإثارة يقظة الحرّاس: «أوّل من يفقد أحدهم سيموت». كانت فوهات البنادق تلامس السروال الداخلي. لم يدرّ البول. عبثاً، حاولنا التبوّل، لم يدر، أو سال قليلاً. ارتعشت الأغصان أخيراً تحت البقع حينما تفضّل البول بارتعاش قطراته. كان الحرّاس يرتعشون كأغصانٍ متقصّفة. «أوّل مَنْ يترك أحدهم يهرب سيموت!»

كان القرار قد صدر.

حيال كلّ احتمال، ربّما كنّا - الحراس المساكين ونحن المختارون - في السجن نفسه تماماً.

أثارت قسوة حصر البول وصدمة الانتقال من نعمة السلطة إلى نقمتها، والصمت الذي خيّم على السيارات حتى التوقّف القادم، الانتباه. نجونا من إعدامٍ بلا محاكمة. ستبقى الركب المرتخية بعد ساعات من الطريق مرتخية لأمدٍ إضافيٍّ طويل. كانت الروح خاوية ومذهولة، فائرة وخاوية. فائرة بمادة خاوية. تهمس بجملة واحدة فقط: هذا مستحيل. كلٌّ مَنْ يُردّد هذه الجملة على نفسه باستمرار، ينجح في الاقتناع بها. هذا مستحيل. فتّشوا عن الخطأ، لأنّه بالتأكيد هناك خطأٌ ما في مكانٍ ما. بعدم تصديق الواقع، وعدم رؤيته، وعدم القبول به، سندعهم يرتكبون الخطأ طوال خمسة عشر عاماً، ونحن مكتوفو الأيادي.

بالعودة إلى الوراء: لم يكن الخطأ هو الاعتقاد بأنّ ذلك كان مستحيلاً، وإنّما كان عدم معرفتنا آنذاك بأنّ كلّ شيء ممكن.

ربّما كانت لنا فقط، وأيضاً، أسبابنا.

خوف المرء على حياته وحياة الآخرين هو البرهان على أنّه ما زال على قيد الحياة. كان ذلك ضعفنا الأوّل، المشؤوم، وهو نفسه ما سيبنون عليه اضطهادهم، ونحن، لأننا ما زلنا أحياء وحديثي العهد، ولأننا تسعة، احتفظنا لأمدٍ طويل بالأمل في ألاّ نموت. الأمل في أن نكون أحراراً ذات يوم. أبرياء، دائماً.

هذا مستحيل!؟ كلّ شيء ممكن. كلّ شيء، كلّ شيء

ممكن على الإطلاق: بقينا مكتوفي الأيدي، مثل المغفّلين، طوال خمسة عشر عاماً.

نحو منتصف الليل، توقّف الموكب في مركزٍ بتزنيت.

تزنيت مدينة جنوبية. أيّ جنوب؟ لا أدري. الجنوب. الجنوب. ولو، لقد كنتِ في المدرسة. حسنٌ، تخيّل جنوبَ جنوبِ جنوبٍ وسوف تجد.

استقبلنا محافظ الولاية على مدرج مقرّ عمله. كان مهذّباً ومتعاطفاً. كان زميلاً للمرحوم والدي، ومعجباً به أيضاً. قدّم لنا وجبة فاخرة. نُدُلٌ بقفازاتٍ بيضاء وحلوياتٌ حسب الرغبة. استعادت الرُكَب الرخوة قوّة. إذن لم يكن ما جرى خلال استراحة التبوّل إلاّ حادثاً عرضياً. بالتأكيد، الأمر يتعلّق بمنفّذي أوامر يبالغون في حماستهم بعض الشيء مثلما يحدث غالباً.

بلغت الوجبة نهايتها. وكذلك الرعاية والاهتمام. وكان ينبغي استئناف الرحيل.

الفصل الرابع

أسا (*)

وصلنا إلى مقصدنا، أسا، عند الفجر. ثكنة عسكرية صغيرة. ثُكنة قديمة مبنية بالآجرّ، وسط واحةٍ في أقاصي الجنوب. رفعُ العلم. طلوعُ يومٍ جديد. تقديم السلاح. النشيد الوطني. كان الجنود مضحكين. كانوا جميعاً ملتحين، بلا شوارب، بينما يحمل نصف رجال البلاد شوارب بلا لحى. بقامة مترٍ ونصف تحت قبّعة، كانوا أشبه بأقزام حديقةٍ لعصرٍ آخر، أشبه ببقايا أشخاصٍ مبتسمين، بعض أسنانهم من الفضة، وواحدٌ من الذهب، ساهين في الواجهة، وآخرون سودٌ سواد قعر إبريق شاي. كانوا مضحكين برزانتهم وجدّيتهم. لا أدري إن كانوا قد ساعدوا في تحرير فرنسا، ولا في أيّ حربٍ شاركوا، ولكنّهم كانوا ليستحقوا صورة جميلة بالأبيض والأسود. رئيسهم عجوزٌ طيّبُ القلب بالزيّ المدني، ذو تكشيرةٍ تنمّ عن إرهاقٍ. كان أقلّ إثارةً للهزل. ثلاثون عاماً في إدارة السجن العسكري، رغيفُ خبزٍ وعلبة سردين، وسردينٌ معلّب لكلّ شخص يومياً، والخطم مغلقٌ على كلّ شيء. لا يجوز الاعتراض، والعنيد يُقهَر. والدليل هو

(*) أسا: منطقة في الجنوب.

عدم وجود عنيدين ليشهدوا بذلك. منصبه الجديد، الملك هو من كلّفه به. وأوامره، يتلقّاها من الملك. لا وجود للصبر عنده. دون أن ننسى أنّه يعاني من مرض السكّري، والاضطراب القلبي، وغياب زوجته، وحرمانه وكبته الجنسي، وشتاءاته الثمانون التي ما كانت تعيد أيّ ربيعٍ ونزقها. فكانت كلّ مراعاة، من قبيل رسائل الأهل والكتب والراديوهات وقارئة الأسطوانات والمجلات، ممكنة شريطة. . . كمّ خطمه الصغير.

لقد جرى التعارف ويمكنكم الإقامة في أمكنتكم.

لم تجد محتويات حقائب الڤويتون خزائن تستوعبها. كان الغطاء المصنوع من فرو الفيزون ينتشر داكناً على سرير أمّي. لم أكن أدري، ولكنّ الجوّ باردٌ في الظلّ في الصحراء شتاءً. توزيع المهاجع والأدوار وقريباً السخرة. علبة سردين أم سردين معلّب على الفطور؟ كان علينا أن ننتظر قليلاً، وكانت الحلوى تتوقّف فجأةً.

بالمقابل، حقّ لنا أن نفتح هدايانا. عيد ميلادٍ سعيد. عيد ميلادٍ سعيدٍ للجميع. قبلاتٌ وعبارات شكرٍ من كلّ الأنحاء. كانت تلك المرّة الأولى التي أحظى فيها بحضور كلّ عائلتي، ينقصها والدي. ولكن كنتُ أرى والدي قليلاً جدّاً. . . وأخيراً أخويّ وأخواتي تحت سقفٍ واحد، وهذا أمرٌ يُحتَفَل به. انتهت المدارس الخاصة، والقصر بالنسبة لواحدةٍ منهم، والمدارس الداخلية بالنسبة لآخرين، كان الجميع حاضراً. أَنلعب؟ فلنلعب. لعبة التخبئة؟ فلنختبئ. هناك باحةٌ.

«باستثناء الصغار، ممنوع الدخول إلى الباحة.

- الصغار؟»

كانت الابنة البكر في التاسعة عشرة من عمرها.

«آخر ثلاثة أطفال.

- من فضلك، سيّدي.

- هيّا، أنا ودود، آخر ثلاثة و. . . والأخ البالغ أربعة عشر أيضاً.

- شكراً، سيّدي.»

في الليل، انهار سقفٌ على مرقد الجنود. وقضى العديد منهم. سبعة جنود.

في أقلّ من أربع وعشرين ساعة، أصبحنا نذير شؤم لا أقلّ ولا أكثر.

مُدِّدت الأجساد النحيلة المغطاة بملاءةٍ بيضاء عند الفجر البازغ في الفناء. قدّم الأقزام الناجون التحية الأخيرة لها. رُفِع العلم في ذلك الصباح، ثمّ في كلّ الصباحات الأخرى، ونُكِّس كلّ مساء. يُطوى ويُرتّب، دائماً بالوقار نفسه. آخر انصفاق للباب والذهاب إلى السرير. نحو الساعة السادسة، حينما يصطفّ الجنود للعودة إلى مخيّمهم، يعلن ذلك نهاية اللعب. كنّا مرغمين على المشاركة في تلك الطقوس. مرغمين على أن نصبح ونمسي يومياً على مدير السجن الآجرّي. أُرغمنا على ذلك من قبل أمّي. كان والدها عسكرياً. كان زوجها عسكرياً. كان مدير السجن إنساناً كالآخرين. إذاً يبقى احترام العلم والإنسان مقدّساً.

قلتُ للسيّد العجوز مساء الخير وأنا أمدّ يدي إليه. على بعد عشرين متراً، نادتني أمّي. وألقت عليّ موعظة: التحية من دون النظر إلى عيون الناس غير لائقة. برّرت موقفي، ودافعتُ عن نفسي: «ولكنني قلتُ صباح الخير.» سرعان ما أثارني الظلم. كانت أمي تعرف ذلك. «هذا صحيح، قلتِ صباح الخير، هذا صحيح، صافحت الرجل، وهذا جيّد، ولكن كلّ شيء تقريبي، كلّ شيء بعيدٌ جدّاً عما يُحدثه عند شخص شخصٌ حاضرٌ وقويّ.» شرحت لي أنّه لفرط عدم النظر إلى الناس، قد لا يعود الناس ينظرون إليّ. أخبرتني كم كان الاحترام شائعاً. مصافحة حازمة، ونظرةٌ ثابتة، وكلمة صباح الخير حقيقية غيّرت كلّ شيء. أكّدت لي أنّ هذا العجوز هو الذي بالتأكيد سيراقبنا ويسجننا ويجوّعنا - ولا أحد يدري بعد كم من الوقت سيطول ذلك - ولكن عليه أن يحترمني أيّاً كان عمري. ولكي يحترمني هذا الرجل الذي كان يجوّعني ويحبسني ويراقبني، كان عليّ بكلّ بساطة أن أحترمه.

هذا ما يُدعى فرض الاحترام.

كنتُ في التاسعة والنصف من عمري.

شاهدني مدير السجن أعود لأصافحه بشدّة وأنظر في عينيه. تمالك العجوز الذي كان قد شاهد آخرين كثر الدمع في عينيه. استقام ليحيّيني. وفاض الحنان! سيعذّبنا باحترام. وستبقى الأم الأبيّة، الجليلة، أبيّة دائماً. وفاضت عزّة النفس!

ولكن لن يكون ذلك حتمياً على الدوام.

سرعان ما فرضت الصحراء قسوتها ومفاجآتها وشدائدها، وهذا هو تماماً سوء المزاج في قلب المعركة. بالنسبة للجميع. بات الجوّ حارّاً جدّاً بعد أن كان بارداً جدّاً. لمرّاتٍ عديدة، في اليوم ذاته. كان ميزان الحرارة يبلغ الدرجة خمسين مروراً بالدرجة صفر. بالنسبة للجميع.

لم تكن حقائب الڤويتون تفيد في شيء. وفرو الفيزون كذلك. سال من الشراشف الماء الآسن. كانت الطبيعة بنفسها تجنّ. وكانت الحدائق مُعْشِبة. لم تكن الدويبات ذات القوائم تجري وإنّما تطير من كلّ مكان، أكثر بألف مرّة من نمل حديقتي. إنّ رؤية عقربٍ للمرّة الأولى على الأرض أو الجدار أو السقف تُميتُ خوفاً. بعد ذلك، يُسيطر المرء على خوفه. تعلّمنا أن نحصي عدد الجِرابات وأن نتعرّف على الجنس وأن نتحاشى الخطر قبل ضربة شوكته. نحصي كلّ شيء، لأنّ لدينا متّسعاً من الوقت لذلك. نحصي الرياح الرملية، المرض، الانتظار، الأيام، الأشهر، الانتظار. نحصي العادة، نهايات الأشهر، وصول الطرود في الثلاثين من الشهر، الكتب الجديدة، الدروس السخية باجتهاد من أمّي وأختي البكر. نحصي العادة، العادة التي ترسّخت، مشوبة بالمستقبل، متمسّكة بالأمل. انبنت الشبكة. وُضِعت فيها اليد وكلّ جهودنا. إن لم يكن ذلك لليوم، فببساطة لأنّه كان للغد. وإذا كان الإله الملك بنفسه يحمينا فماذا نريد أكثر! سيعرف أن يحمينا من الجميع ومن كلّ شخص. غداً، سيأتي في طلبنا لإخراجنا من هذا المأوى وإعادتنا إلى أنفسنا. كانت البلاد برمّتها تريد لنا ذلك ولكن لم يكن بوسعها أن تريد لنا

ذلك إلى ما لا نهاية. كنا نحصي الأيام، الأيام دون الليالي، مع ذلك كانت أطول بعشر مرّات. لم نكن قد اندمجنا بعد بفكرة الحَبس. كانت الشمس تعلو، وكنّا نراها. حينما كانت تغيب، فذلك لأننا كنّا نحيط بها بأنفسنا بين أباريق الماء الفائحة برائحة القطران والضفادع المتكرّشة.

كنّا نحصي كلّ الوقت طوال الوقت. وسرعان ما سنحصي عدد التأوّهات على الشفاه المتشقّقة للحراس، اللاإدراك، الانقياد، الخَدَر الملقّح بجرعة صغيرة من ذلك الأمل الهالِك: ما هو عقربٌ أمام قدر كلّ واحدٍ؟ ما عساه أن يفعل حارسٌ أمام طفل؟ ما هي الجريمة أمام البراءة؟ لم أكن أعرف بعد شيئاً عن ذلك. كنتُ ألعب ألعاب عمري، مع ضفادع وعقارب وعناكب وفئران واهية تحت قوّة الريح. كان الكبار يسهرون على أن يخترعوا لنا ألعاباً. كانوا يصنعون من ثلاثة أشياء تافهة «دزني وورلْد». وكان الأمر ينجح.

حتى أنّه حصل لي أن نمتُ في سرير أمّي.

لمرّة في اليوم – غالباً في بداية ما بعد الظهيرة بعد علبة السردين ورغيف الخبز، برفقة ثلاثة جنود ظرفاء – كان لنا، نحن الذين سيُطلق علينا منذ ذلك الحين «الصغار»، الحقّ في نزهة وسط القرية المجاورة. احتفى بنا الرجال والنساء المرتدون للألبسة الزرقاء اللون وعاملونا بحنان. قدّموا لنا يومياً بلحاً وبسكويتاً مصنوعاً من الذرة. كانوا يعرفون. يعرفون والدي ذا الأصول الجنوبية. يعرفون هذا المنفى التأديبي. كانوا يعرفون،

ولكن لم يكن بوسعهم فعل شيءٍ سوى أن يكونوا حنونين. إذاً كان بوسعهم القيام بكلِّ شيء.

بعد بضعة أشهر أُخبِرنا باجتماع الموسم السنوي لكلّ قبائل الجنوب. في تلك السنة، كانت بدايات نزاع الصحراء الغربية تزيد مخاطر التمرّد. كان عليهم أن يبعدونا إلى مكانٍ آخر لمدّة شهر. ذلك يؤشّر إلى كم كانوا حريصين علينا.

كانت الرحلة في عربة السّجن شاقّة. طويلة جدّاً. خانقة. كئيبة. وكان الوصول إلى تلك الفيلا بحديقتها غريباً. كانت الحديقة المحاطة بسياجٍ يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار غريبةً. والأسرّة المعدنية الشبيهة بأسرّة المستشفيات الناصعة البياض كالبيض المقشّر كانت غريبة أيضاً. تحمّلنا البلاء. كنّا نلعب. نلعب جميعاً معاً، بمن فينا أمّي. نلعب لعبة السيارات المتصادمة بالأسرّة ذات العجلات. ضحكات متفجّرة في الممرات المتعرّجة لحياةٍ تغدو كلّ يوم أكثر حيرةً. كانت أشجار الحديقة تعطي حبات لوزٍ طازجة. ويرتدي الحرّاس خلف سياج قنّ الدجاج ألبسة موحّدة فاتحة اللون.

لا بدّ أنّه كان فصل الربيع.

الفصل الخامس

عودة إلى أسا

بعد بضعة أسابيع، تعلّمتُ صيغة النصب وكذلك القسمة على عددين. يا له من سجن للأشغال الشاقّة. يمكن لجمع بذور عبّاد الشمس، ومن ثمّ الاضطرار إلى تقسيمها، ثمّ ضربها لإيجاد حاصلها، أن يتسبّب ببداية حَوَلٍ في العينين. ربّما يكون من الأفضل أن أرى على نحوٍ مزدوج. أو أن يزدوج العالم. واحد في الداخل زائداً واحد في الخارج، يُقسمان إلى اثنين، ومن ثمّ يُضربان ببعضهما من جديد، وسيسفر هذا عن داخلٍ وعن خارج. وإذا ما أضفتُ صفراً وفارزةً، سيجعلني هذا في الداخل ويجعلهم في الخارج.

العودة إلى أسا بعد شهرٍ من مغادرتها. لم يكن المزاج مستقراً. لم نكن أحراراً بعد. لا بدّ أن الملك منشغلٌ جدّا بقصة الصحراء الغربية هذه. كان عليه أن يعود إلى ذكراه الجميلة. رسائلُ مليئة بالأحرف الكبيرة والألقاب الممجّدة سُلّمت للعجوز الطيّب، الذي، لكونه على اتّصالٍ مباشر مع وسائل السيّد، يُقسِم إنّه ينقلها إلى المعنيّ مباشرةً. في الفترة الأولى، كان الأسلوب

محترِماً ولائقاً. صاحب الجلالة، نفهم أن يكون هذا لحمايتنا، ولكن أيضاً يجب عدم المبالغة. الجوّ حارٌّ حقّاً هنا. مسألة الراحة والثقافة، منتهية، لا يوجد تكييف ولا مسبح. جور دي فرانس مع جاك شازو كل أسبوع، هذا جيّد، ولكن بقينا محرومين من زيارة أهلنا. ومن ثمّ تسعة أشهر لتهدئة الخواطر، نعتقد أنّها منطقية ونحن مقتنعون بأنّها ستكون كافية. في كلّ عيدٍ وطنيٍّ أو دينيّ – وأكاد لا أبالغ إن قلت هناك عيدان شهرياً – كنّا نرسل رسالة، ويستمر الصمت. الصمت أيضاً ودائماً، وردّاً على ذلك، رسالةٌ أخرى مع مزيدٍ من أحرفٍ كبيرة وعلى نحوٍ أقلّ من المزاجية.

بعد عام من الصمت، كتِبَت الرسائل بتذلّل وبدا الصمتُ أكثر تعالياً. كان العجوز الطيّب ذو التكشيرة المضنية يدّعي أنّه قد تأذّى جدّياً. وسط الباحة، كان مرض السكّري خاصته يرشح داخل منديلٍ ذي مربّعات. كان دائم الشكوى. حتى زوجته لم تكن موجودة لتنظّف مهجعه أو تعدّ له طبقاً صغيراً شهيّاً من الطعام. كانت أمّي تعدّ له بعض السردين وتقدّم له جرعته اليومية من الأنسولين. في الوقت الذي كان يعتبرنا مسؤولين، لأنّه بسببنا كان موجوداً على تخوم الواقع، كان يعاملنا بودّ، مثلما يكتفي الإوز بأوّل عائلة في متناول منقارها.

الجود بالموجود. القيام بما تبقّى لنا هو الاحتفاظ بالقدرة على فعل المزيد. لا سيما الاحتفاظ، فوق كلّ شيء، بالشعور بالقدرة على فعل شيءٍ ما. ذات يوم، بعد حقنته اليومية من الأنسولين، صرّ: «ثلاثون عاماً في العمل ولم أرَ قط أطفالاً في

السجن.» كان يلثغ بحرف الراء. وشفتاه متهالكتين على ياقةِ قميصٍ تلمع عليه آثار لعابٍ مرير. سوف يرحل. أخيراً، سيطلب الرحيل. كان ذلك قاسياً للغاية. لم يكن يطيق أن ينهي مهنته بهذه الطريقة. بدا شائخاً جدّاً، تائهاً، محطّماً. كان ضابطاً وكان يحرص أن يبقى كذلك.

«أطفالٌ في السجن، هل شاهدتم هذا من قبل؟

- كلا، سيّدي.»

قُبِلَت استقالته. كان بديله نقيباً وسيماً وقويّاً. نقيبٌ شاب ذو ابتسامة جذّابة تحت شاربين أسودين فاحمين، لامعين. كان يكتفي بمراقبتنا دون إبداء حماسةٍ. لا بدّ أن قلبه وخصيتاه قد دفعاه إلى المكان المناسب، وقد نُقِل بعد ثلاثة أشهر.

أبدى بديل البديل، ذو الذراعين الطويلتين المتدليتين إلى جانب جسم مشوّه، الحذر. كان يمسك الرسائل بأطراف أصابعه. ولاً شكّ أنّه كان يسلّمها وهو يتراجع إلى الخلف. حينما يصمت، كان يفعل ذلك بكثير من الحيطة.

خيّم القلق. من جهةٍ ومن أخرى، كان الصمت يعجّ بأسئلةٍ هاذية. إذا ما خضع محميو الملك الإله للصمت، ماذا سيحلّ بحرّاس محميي الملك أب الجميع، إذا ما راودتهم فكرة أن يذنبوا، إلى درجة ارتكاب جريمة الرأفة؟

في غضون ذلك، حلّ ديسمبر (كانون الأول).

دون شجرة التنوب، ودون ثلوج، كان نويل، الحانق بالتأكيد، ينصرف فوراً.

عند أقدامنا، كانت هدايا من ورقٍ مقوّى تصطفّ سيارات جيب وعربات وبنادق وثعابين. لم يراود أحد فكرة أن يطلب لعبةً، أطلساً، أمنيةً، ولا حتى أقلّ حلمٍ.

الفصل السادس

قصر الگلاوي

عند فجر يومٍ جديد، جاؤوا في طلبنا لوضعنا في مأمن.

هذه المرّة، كان قصرٌ في انتظارنا. قصرٌ قديم للگلاوي من الآجر والأنقاض. هذا لغو. فقصرٌ قديمٌ للغلاوي لا يمكنه أن يكون سوى من الآجر والأنقاض. طُرِد الگلاوي العظيم لمراهنته على الفرنسيين إبّان عهد الوصاية. تم حرمانه في الحال وأُرغِم على أن يقدّم الولاء للسلطان أمام المصوّرين. وتُركَت أملاكه بمعظمها للإهمال.

«لا ينبغي المراهنة على الجمل الرديء»، كان لويس فونيس يقول. لِمَنْ تقولين ذلك...

للوصول إلى قصر الگلاوي، كان لا بدّ من قضاء ثماني عشرة ساعة في سيارة النقل ذات البلور الملوّن. الجميع معاً في عربة الشحن نفسها، متّكئين، متأرجحين، متشبّثين على، قُرب، تحت الدنان الآجرية المغطاة هي نفسها بأنسجة من التول الذي يرشح بالقطران الفائح، والتي تغطّت شيئاً فشيئاً بالغبار والرمل، بالرمل والظلام. اختلط كلّ شيء. وتوحّدت المواد بالبشر. رفعت بعض الأنفاس ذرات الغبار، ثمّ شاهدتها عيونٌ خافتة ترقد

بهدوء لتعيد تشكيل المادة. لم نشاهد الحراسة، ولكن أصواتها كانت تُسمَع في الخارج. لأنّه، منذ ذلك الحين، كان هناك نحن والخارج. لم يجد أحدٌ الوقت للتشكّي. لا فسحة للشكوى. لم يعد هناك ما يكفي من الهواء لأجل البقاء حتى نشتكي. كان نقص الأوكسجين يقتلنا بهدوء، دون أن يؤلم. حتى أننا لم نعد نتألّم لئلاّ نعود أحياء. لم تكن هناك أيّة استراحة، ولا كانت متوقّعة ولا كان علينا توقّعها. ولا حتى شعرنا بالألم في مثاناتنا. ولا حاجة لشدّ الفخذين إلى بعضهما. والأسوأ، لم تعد هناك رغبة لدينا. بقبق الماء في الدنان دون أن يثير الرغبة في الشرب. ما العلاقة؟ منذ متى كان عليه أن يكون دقيقاً بينما هو ممنوحٌ للتبوّل فوقه؟ هذا يترجّح. يدور. يعود. يتشوّه. كل شيء يعيدنا من براءتنا. بعثت القوائم الحديدية الأربع المتأرجحة ضحكة متوتّرة. هذا يسبب دوّار البحر حينما تنقلب الأرض. نعبر الأطلس. أيّ أطلس؟ الأوسط أم الكبير، لماذا، أهذا مهمّ؟ لتحديد الاتّجاه، نعم. أيّ أطلس. . .

انتظر، بعد خمسة وثلاثين عاماً، ما زال قلبي يؤلمني من جراء ذلك، لا بدّ أنّه كان الأطلس الكبير، ولكنني لستُ متأكّدة من ذلك. وثمّ؟ وثمّ يبدو أننا كدنا جميعاً نموت بسبب سائقٍ أرعن. قالوا إننا نجونا بأعجوبة. تجنّب قبرنا المشترك، بالكاد، الهاوية. أنتم، ألم تكونوا في الهاوية بالأساس؟ كنتم هناك بالأساس في الهاوية، أم أنني مخطئ؟ حسب قولهم، كنّا جميعاً محظوظين جدّاً في الحقيقة، ذلك اليوم. ربّما كان ذلك مساءً. ربّما، لماذا، أهذا مهمٌّ جدّاً؟

...

لا شيء مهمّ. كلّ شيء جوهريّ.

المرات الأربع التي نجونا فيها من الموت دون أن نفعل أيّ شيء ولا أن يكون بوسعنا القيام بأيّ شيء للنجاة منه. لأربع مرّات على الأقلّ خلال عامين، تركت لنا الحياة الوقت لنكمل قدراً: حادث العودة من العطلة الصيفية، التهديد بالإعدام دون محاكمة خلال استراحة التبوّل، السقف، المشترِك مع مهجعنا، والذي انهار فوق الجنود، وهنا وفّرنا سائقٌ طائش. أربع مرّات نجونا سالمين دون أن نحرّك إصبعنا الصغير.

ثمّ؟ ثمّ وضع سائقُ قبرِنا موسيقى صاخبة بينما كان الحارس الناجي من الموت يكرّر اللازمة. جرّبنا الفاصلة الثلاثية. حاولنا أن نؤدّي لحن أغنية رافضة تروي رحلة نسيبٍ منطلقٍ نحو مكانٍ مجهول. فين غادي بيّا خويا، فين غادي بيا(*) طبعاً كانت تلك حكاية مفقودٍ مخطوفٍ بسبب أفكاره. أنشدنا قوافي اختفائنا المبرمَج. لك الحقّ في ألاّ تصدّق ذلك، ولكننا علمنا فقط بعد عشرين عاماً من ذلك بأن تلك الأغنية كانت قد كُتِبَت لنا. غنّينا عن طيب قلب طوال المسافة دون أن نجد قرارنا لا للرفض ولا للتأييد إذ لم يكن ذلك سوى سنتمتر واحد من مئات الكيلومترات التي كنت تحمّلنا إيّاها قسراً. كنّا على قيد الحياة، فوضى! والحياة تُغنّى، حتى وسط الغائط. ويُحتَفَل بها. غنّينا بشكلٍ

(*) «إلى أين تذهب بي يا أخي، إلى أين تذهب بي.» وهي لازمة في أغنية فرقة «ناس الغيوان» المغربية.

صحيح. في كلّ حال، حاولنا أن نكون دقيقين وملتزمين بالإيقاع.

وبعد؟ بعد ذلك، وصل الناس إلى غايتهم مثلما بدأوا يجيدون منذ ذلك الحين. حتى أنها وصلت في الوقت المحدّد. الناس، مَنْ هم؟ حسناً، إنّهم نحن. وأنتم؟ حسناً، نحن هم نحن. والسيّدتان اللتان لم تكن لهما أيّة علاقة بكم؟ الشيء نفسه، وصلتا في الوقت المحدّد مثلنا. غنّتا مثلنا تماماً. معنا. في الواقع، لماذا تسأل عنهما بينما ترفض إطلاق سراحهما؟ طلبنا منك ذلك مراراً في رسائلنا، مع ذلك... لم تستطع أن تشاء ذلك لهما لكونهما مخلصتين لنا بعد أن نحرتَ والدنا لأنّه خانك.

...

أَجبني، أحتاج إلى معرفة ذلك.

كانت بوابة القصر واسعة. بابٌ ثقيل من الخشب الإنكليزي الأخضر. مطرّق بمسامير جميلة على مسافات منتظمة حول كامل القوس. في إحدى درفتيه بابٌ صغير سريّ بارتفاع قامة رجل يتيح الدخول. أو الخروج.

فُتِحَت الدرفتان على باحةٍ مربّعة. لم أرَ تلك البوابة الواسعة إلاّ من الداخل. خمّنتُ أنّ الوجه الآخر من البوابة باللون نفسه والحجم نفسه مثلما يتطلّب الذوق السليم. فوق الباحة، كانت السماء صافية. مربّعة وصافية.

بدا قصر الگلاوي صغيراً ، أَيكون هذا فقط جناحاً منه

خُصِّص لنا؟ وما دمنا لم ندسّ طرف أقدامنا فيه، لم نستطع تخمين الأمجاد التي عادت إلينا.

كان عقيدٌ يرتدي معطفاً شبيهاً بمعاطف النازيين، مرفوع الياقة على أذنين منتصبتين، يعطي الأوامر دون أن يتوجّه إلينا أبداً. شاهدناهم يعملون. وسمعنا نباحاً. امتثلنا لما طُلِب منّا القيام به. كنا ننوي الفعل والقول دون أن ندري ما سيحلّ بنا. ببطء، انغلقت الأبواب الثقيلة على الباحة المربّعة، وسط حلقة ضاقت أكثر فأكثر، وتحدّدت أكثر فأكثر. نشّطنا سيقاننا. نفّضنا الغبار عن بعضنا البعض. أزلنا المساحيق عن وجوهنا ونحن نتسلّى بقناعنا المكوّن من الرمل والغبار والحظّ وسوء الحظّ ومن ليلةٍ بيضاء دامسة.

من حولنا، أُضيفت ألبسة موحّدة جديدة إلى القديمة منها. وستتنافس هيئتان عسكريتان على المأساة نفسها. كانوا يراقبون بعضهم على نحوٍ متبادل لِئلاّ يجد أحدٌ الفرصة للرفق بنا.

كان الكلُّ مجنّداً لثني قوس قزح.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري.

الفصل السابع

تاماتاغت، 1974

توارى العقيد دون أن يتفوّه بكلمة معنا. أقمنا في غرفنا. وتزاورنا. كان المبنى على شكل حرف L على الطابق الأوّل. من جهة، ممرّ طويل فيه نوافذ تطلّ على الباحة يفضي إلى غرفة صغيرة معتمة. من الجهة الأخرى، حُجرتان مستطيلتان مفروشتان كمهجعين للنوم، بموازاة صحن الدار الذي يطلّ بابه الواسع أيضاً على الباحة. كانت السماء تبدو، من صحن الدار، زرقاء، زرقاء ودائمة الصفاء مثلما تجيد الصحراء تقديمها. كانت المراحيض مزوّدة بمغسلةٍ وحفرةٍ عليها سدادة كانت تتلقّى مياه الاستحمام والفضلات في حجرةٍ سفلية. في الطابق الأرضي، كان المدخل يحتوي على دنانٍ وأحواضٍ للماء. وكان يُفترَض بحجرةٍ أخرى مسودّة بسواد الدخان أن تكون المطبخ. لم يكن هناك لا ماء جارٍ ولا كهرباء. كانت المهاجع مفروشة بأسرّة تبدو مريحة، وبطاولات لكلّ منّا، وبمصابيح زيتية، وسجّادٍ بربري. حان وقت وجبة طعام. وعند انتهاء وقت الزيارة، تمنّى لنا العقيد المخلّع المشية طعاماً هنيئاً وانصرف متبوعاً برجاله ورجالٍ آخرين يراقبون رجاله.

ما إن بقينا وحدنا، سارعنا إلى تقييم الوضع. تعرّفت أمّي إلى العقيد. كان شقيق أحد أصدقاء الملك والذي قضى في تموز (يوليو) 1971، في نفس يوم مقتل والد صديقتي التي كانت تسحق النمل تحت شجرة السرو في حديقتي.

للتفاصيل أهميتها. كان ذاك العقيد قد عُيِّن من أجل «الاهتمام» بنا. وقد منحه الملك بذلك الفرصة لكي ينتقم لمقتل شقيقه. تفصيلٌ هامٌّ آخر، أيٌّ منّا لم يكن قد قَتَلَ ولا ساعد في قتل شقيق العقيد.

كانت أمواجٌ سيئة تغمر القلوب الحنونة بعد. مرّت الوجبة الوفيرة واللذيذة على نحوٍ سيّئ. أقمنا في غرفنا. رتّبنا أمورنا. اهتممنا ببعضنا. سوف نستخدم الممرّ الطويل قاعةً للدراسة، وصحن الدار صالةً للطعام، وستنام أمّي مع أخي الصغير البالغ خمسة أعوام في الحجرة الواقعة في آخر الممرّ.

صباح اليوم التالي، دخل الحرّاس ومعهم دلاء الماء لملء الدنان. كانت الأحواض البلاستيكية مصفوفة، مليئة حتى حوافها لتتيح لنا أن نغتسل كما نرغب. طلب النقيب أن نجتمع. الوجبة والأسرّة والزينة كانت فقط للاستقبال. استعادوا كلّ الأثاث. ثمّ قُرِأت قائمة الأطعمة التي ستُقدَّم لنا من الآن فصاعداً: لمرّة واحدة في الأسبوع، سيُجلَب لنا كيلوغرام من الأرزّ ومعجّنات وسكّر وطحين وعدس ولحم ومن ثمّ زيت وبيض. أُعدّت تلك القائمة بناءً على المبلغ المخصّص من قبل الدولة لكلّ سجين. لقد صدقت القول في كلمة «سجين». كلاّ، كانت طريقة للكلام. كلا، لقد صدقت القول في كلمة «سجين».

لم تعد هناك نزهة في الخارج، حتى للصغار. ظلّ ممرّضٌ تحت تصرّفنا.

«بما أنّ المبلغ المخصّص للحصّة التموينية الأسبوعية قد حُدِّد، هل سيمكننا أحياناً أن نستبدل السمك أو الزبدة أو الألبان لنفضّل الكرواسان؟» كانت نظرة النقيب وصمته وضيقه بليغة الدلالة. «لم تكن هذه سوى فكرة، أيّها النقيب».

اشتدّت الملزمة علينا. أتاح الاستقبال المتقن تهدئة الخواطر وبدت أربع وعشرون ساعة كافية للجم ردٍّ فعلٍ إنسانيٍّ من الثورة واليأس. غالباً ما يتدخّل الانتحار خلال الليلة الأولى، أليس كذلك؟ غالباً. ما إن انغلقت الأبواب، ومرّت الساعات الأربع والعشرون الأولى، فات الأوان. دائماً.

كنّا سجناء.

استقرّت عادات جديدة وشحّمت الروتين لتجعل الأيام تتشابك مع بعضها وتدور. الاستيقاظ في السابعة، الاستحمام، الفطور عائلياً، دراسة للجميع، استراحة في الباحة، الغداء، الدروس مرّة ثانية، الاستراحة مرّة ثانية، الاستحمام مرّة ثانية، العشاء، مسابقة القراءة، وأخيراً الذهاب إلى السرير مع مطاردة البعوض والصراصير والجرذان والثعابين والفئران والخفافيش. نُظِّمَت مسابقات في ذلك. سحق الأقوى أكثر من أربعمئة بعوضة في المساء نفسه والخفاش الأضخم لم يكن يدخل في قمقم سعة ثلاثة لترات. هذا بالنسبة للغنائم. أمّا فيما يخصّ القراءة، فكانت المنافسة تتركنا يقظين حتى منتصف الليل. كان الفائز هو مَنْ يقرأ المزيد من الكتب ومَنْ يكون عرضه الأكثر إيجازاً.

هناك ما هو مفيد في كلّ شيء وفي كلّ مكان.

في المساء، كانت أمّي غالباً ما تستمع من الراديو إلى أم كلثوم أو آيات قرآنية، وهي ترنو في نظرة شاردة إلى إحدى صورتَيْ والدي. صورة ملوّنة كانت تُظهره ببزّة زرقاء، وأخرى بالأبيض والأسود، يرتدي البزّة الحربية، معتمراً قبّعة بشريط. كان يبدو، في الصورتين، نابضاً بالحياة. غالباً في المساء، بعد تأمين نهارها، كانت الأم الشجاعة تبكي، ونظرتها تائهة في عينيّ زوجها. أحياناً يشتدّ بها الشوق إليه، أحياناً تحقد عليه لتركه لها، وبعض المرّات تحمّله المسؤولية بإجراء تلك المكالمة التي ثنتنا عن مغادرة البلاد حينما كانت الفرصة سانحة لذلك بعد. تبكي كلّ مساء، تغنّي أو ترتّل ودائماً تحبّه، ما زالت ودائماً. ذلك المشهد من الاتحاد بين والديّ سيظلّ لأمدٍ طويل يمثّل بالنسبة لي صورة الحب المطلق. الرجل يتصرّف ويقرّر مصير حياته. المرأة تعاني وتدفع الثمن وتتحمّل العواقب.

ثمّ تبكي غفرانها الضروري للحبيب دائماً.

الفصل الثامن

اللقالق

كنتُ أتقدّم سريعاً في عامي الثاني عشر، مع أفكارٍ تملأ رأسي. كان أخي الصغير يرغب في اللعب معي. وكانت أختي التي تكبرني بأربعة عشر شهراً، وبلغت سنّ المراهقة، تفضّل رفقة الكبار. لم يلجم أيّ شيء حاجتي لتعلّم دروسي، واستظهارها قبل أن يُطلَب منّي ذلك، وحسن التصرّف، واللعب بوداعة، والقراءة والوصول دائماً في الأخير في مسابقات التأليف. أولعتُ بروايات **الحرب والسلام**، **مولن الكبير**، **أميرة كليف**، **الدكتور جيفاكو**، وأعدتُ للمرّة الثالثة وبالشغف نفسه قراءة **ذهب مع الريح**. أُعجِبتُ بسكارليت. تلك الفتاة، علاوة على كونها جميلة، لم تتنازل قط. كانت دراستها سيئة وكذلك خياراتها ولكنّها ظلّت على الدوام مثابرة. عاشت البذخ ثمّ الجوع، البرد، الأحزان، البذخ. من المؤسف أن تكون حائرة ومنسيّة. من المؤسف أن تبقى ممقوتة. ورِيت باتلر هذا، أيّة سحنة كريهة ليأخذ كلّ هذا الوقت لحماية نفسه! في الحال جاء دوستويفسكي، مع **الأخوة كارامازوف** و**الأبله**، والبرنامج التالي،

مع ڤولتير وسان أوغسطين، والإنكليزي الذي كان يتجاوز أخيراً My tailor is rich.

كلّ ثلاثة أشهر، عند كلّ تبديلٍ لفرق الحرّاس، كنّا نتلقّى طروداً من ذوينا وظلّ الأكثر أهمية الكتب وأدوية لأختي المصابة بداء الصرع. كان بعض الحرّاس، الذين نجحنا في إقناعهم بالذهاب لمقابلة جدّي، يقدّمون لنا مزيداً من الأرزّ والزيت ومواد غذائية أخرى غير كافية أو القليل من المواد الإضافية بدلاً من بعض الطرود. كانت الرسائل المكتوبة إلى الملك تغدو مثيرة للحزن أكثر فأكثر. كنا نشكو إليه من المعاملة التي نلقاها، مقتنعين بأنّ الإله الملك الأب، حالما يعلم بمحنتنا، سيعمد إلى معاقبة الفاسدين الذين تمادوا كثيراً في الاستمتاع بإيلامنا في الروح والقلب. الصمت. في السابق، كنّا نحسب الزمن الذي كان يمضي، بتنا، هنا، نشتكي من الزمن الذي يمضي. كنّا نضجر من كلّ ذلك الزمن الذي كان يمضي، الذي كان ينقضي من دوننا.

ثمّ ذات يوم، بفضل زيارة، شعرنا بأننا أقلّ عزلةً.

على سياج صحن الدار، حطّت حمامةٌ. حذرة. التفتت ذات اليمين وذات الشمال. ألقت نظرةً من حولها. كانت حبّات العدس والأرزّ متناثرة على الأرض. تردّدت. انقضّت على الحب. نقرت بمنقارها. انصرفت. دعت زملاءها، وعادت برفقتهم. في غضون بضعة أيام وبضع قبضات من حبوب الأرزّ والعدس، تعدّدت زيارات الحمام الزاجل. وسرعان ما بنت

عشّاً، واحتضنت بيضاً، وفقستها فراخاً. نصحنا حارسٌ أن نقتلع ريش أفراخ الحمام عند أطراف أجنحتها لتعويدها على المكان. وسوف يسمح نمو ريشها من جديد حينما تكبر بالطيران، والحفاظ بذلك على حريّتها وهي تعود، عند حلول المساء، إلى برجها. أعطت التجربة ثمارها. تبنّى كلٌّ منّا حمامةً. وتشكّلت أزواجٌ منها. تولّدت صداقات وحصلت المنافسة. لِمَن سيكون الحمام الأجمل، الأقوى، الحمامة الأجمل. في الصباح الباكر جدّاً، بعد التقاط حبّات الأرزّ الأولى من صحن الدار، كان الحمام ينصرف طوال النهار إلى البراري. عند مغيب الشمس، بعد الدراسة، تعود حاملةً لنا بعضاً من الأفق، من الخضرة، من الفضاء، من الهواء، كانت تستدير على نفسها، وتغتسل في قدرٍ، تتناول العشاء، وتأوي إلى بيتها الجديد. خُصِّص لكلّ زوجٍ منها بيتٌ، هو عبارة عن علبة كرتونٍ وُضِعَت مقلوبةً، حرصنا قبل كلّ شيء أن نفتح فيها باباً مقنطراً، للانسجام مع العمارة المحيطة.

كانت محبّتنا للحمامات كاملةً بقدر كراهيتنا للقالق الجاثمة على الأبراج. نراقبها من الباحة. نكرهها من الباحة. اللقالق متحذلقة. تعاملك باستعلاء. إنّها صاخبة. يبدأ ذلك بعشٍّ يكبر بأغصانٍ رمادية كلّ عام بعد عودتها من الألزاس. كلّ عام يُعلن وصولها في السماء عن حلول كانون الأوّل (ديسمبر) وسنةٍ أخرى، وانكسار ألواح الجليد في الأحواض. في موسم التزاوج، يتبادل طيران أبيضان بالكامل مع ضربة ريشة كبيرة باللون الأسود في أطراف الأجنحة القُبَل بمنقاريهما الأحمرين البرتقاليّين المثيرين المصطكّين. يستمرّ ذلك للحظةٍ. لحظة

حنونة. اللقالق تداعب بقوّة. ثمّ يمتطي أحدهما ظهر الأخرى ويخفق بجناحيه وينزل في الحال. قبلةٌ أخرى ثمّ يتمطّيان في نشوةٍ غامرة ويصطكّان بمنقاريهما ويبسطان رقبتيهما. تحتفل اللقالق بغبطتها لعشر مرّات في اليوم على الأقلّ.

ورثتُ فرخ حمامٍ أبيض بالكامل. في الواقع توارثنا عن بعضنا. حظي زغلولي، الصغير، الضعيف، الناصع البياض مثل يمامةٍ، ببيتٍ عزوبية، وببابٍ مقنطرٍ جميل وبكامل عنايتي. يتبعني في كلّ مكان مثل كلب. في سنّ البلوغ، شرع بالطيران دون أن يعود قطّ بأنثى. طوال ما يقارب عامين عاش وحيداً وسط أمثاله، هزيلاً باستمرار، منزوياً غالباً.

ولكنّ الحمامات جلبت لنا ذُبابات النُعرة. والنُعرة كريهة. إنّها تحبّ مؤخّرة الأبقار. ذات مساء، جاءني إلهامٌ عظيم، رششتُ البيت الكرتوني لحمامي بمضادٍّ للطفيليات. في صباح اليوم التالي، لم يردّ على ندائي. انتهيتُ إلى إيجاده لابداً في قعر البيت الكرتوني، دون نُعرةٍ تحت ريشه ولكنّه أعمى. منذ ذلك الحين وقد عجز عن الطيران، كنتُ أبقيه طوال النهار على كتفيّ وأغذّيه بيدي. سُمّي عباس الأعمى - على غرار غاستون لاغاف - وهي السخرية التي وجّهت لي مباشرةً. باقتراب مراهقتي، باتت رعونتي مرضية. كنتُ أوقِع كلّ ما ألمسه. لحسن حظّي، لم أكن أوبّخ أبداً على ذلك. باستثناء أنني لُقّبتُ، لفرط ما أضحكت، باسم شارلي، اسم جندي من ناقي كان يحلم منذ صغره بأن يصبح طيّاراً، وانتهى به الأمر بأن يلوّح بذراعيه لإقلاع

وإنزال الطيّارين المحنّكين، على متن حاملة الطائرات إبان الحرب العالمية الثانية، في غمرة حرب الباسيفيك. حينما نال الطيارون اليابانيون الانتحاريون من العديد من حاملات الطائرات والطيارين، دعت الحاجة إليه. قفز شارلي إلى طائرةٍ، وأقلع مثل طيارٍ معلّم، ودمّر العديد من طائرات العدو وحطّ متباهياً على حاملة طائرات. . . كانت يابانية.

سمعنا تلك القصّة عبر الراديو في برنامج بيير بيلمار قصص غريبة. من هنا جاءني لقب شارلي.

الفصل التاسع

الله

تداخلت الأيام. ونمت الأجسام على إيقاعها. كان أحدها يبلغ متراً وثمانين سنتمتراً، وأبرز آخرُ نهدَي ووركي امرأة جميلة. واحتفل آخرٌ بأعوامه العشرين، أمّا أنا فقد بدأ وعيي ينمو.

لم نكن قد نُقِلنا بعد. ولكن لن يتأخرّ ذلك. ولفرط ما قلّبنا المشكلة في كلّ الاتجاهات، انتهينا إلى أنّه علينا التوجّه نحو الله بذاته بدل رسله. وقد استبدّت بنا حمّى دينية بلغت أوجها. لم يكن بوسع اليأس واللاإدراك أن يجنّبانا ذلك التحوّل. فأضفنا إلى الفرائض الخمس صلاة ما قبل الفجر الإضافية. وإلى الدعوات الألف التي ندعوها في النهار للمغفرة، أضفنا التوبة. وإلى أيام رمضان الثلاثين، قدّمنا أربعة أشهر من الصيام. لم نعد نُقسِم إلاّ بالقرآن، ولم نعد نتواصل إلاّ عبر القرآن الكريم. القرآن، دائماً وأبداً، وأحياناً لليالٍ كاملة بمعجزة معلَنة. في اللحظة التي نعتقد فيها بأننا روحانيون، ينفصل الدين عن العقل. يصبح الأمل منطقياً ويناقض حتى مجرّد فكرة اليأس. المنطق يقول بأننا مذنبون. كان الذنب يفرض علينا طلب المغفرة. كان ذلك يدور

في رؤوسنا الصغيرة كرؤوس الغنم مثل ألبسة في آلة غسيل مع جرعة كبيرة من ماء جافيل.

لتأدية الصلاة، ينبغي على البنات ارتداء ألبسة من الكعب حتى الرسغ وتغطية الشعر بمنديل. أخبرتني أمّي بأنّ والدي كان يصلّي عارياً في غرفته.

«- لماذا هذا الاختلاف؟

- لأنّكِ فتاة.»

أنا أكون. وما أكونه ليس كافياً.

كان طولي قد نما بضعة سنتمترات دفعة واحدة. كنتُ لا أزال ألعب مع أخي. ذات يوم، بينما كنّا نلعب في الباحة، أطلقتُ خطأً كرةً من النسيج على أسفل بطنه. فأُغمي عليه. تملّكني الذعر، وبدأتُ أعتذر منه، ولكن لم يجدِ أيّ شيء نفعاً. «لا يمكنكِ أن تفهمي، لستِ إلاّ فتاة.»

عبارة «أنتِ فتاة» أصبحت «لستِ إلاّ فتاة»...

ذلك التفسير للمقدّس الذي يمنحني نصف حصّة لم يكن يُسعدني قط. «هذا مكتوب»، نعم، حسناً، ولكن كيف أمكن كتابة خطأ كهذا؟ «صلّي لكي يُغفَر لكِ تجديفك.» صلّيت لكي يعيد لي كاتب هذا الخطأ التجديفي حصّتي الثانية. الصمت. لا بدّ أن والد الإله أصمٌّ هو الآخر. ربّما هذه مسألة وراثية. تدريجيّاً، تلاشت صلواتي. ولكوني غير متمكّنة من العربية الفصحى، بات التفسير الذي نُقِل إليّ للآيات القرآنية مشكوكاً فيه بالنسبة لي. لم يكن منطقياً أن يكون إله عادل ورحيم قد استطاع أن يضع توقيعه على ظلمٍ كهذا بين الجنسين، بين البشر، وأن

يقارنني بخروفٍ في حظيرته. بأيّ قانون؟ إمّا أن يكون القانون منصفاً أو يكون قابلاً للاعتراض.

من أجل التوقّف عن الترطين اللفظي للصلوات لغير صالحي، كففتُ عن التصديق. فكّرتُ، بأقصى تبصّرٍ في التوقّف عن الاعتراف ستّ مرات يومياً بأنني لستُ سوى بذرة منفوخة من ضلع، ثقب ضروري لقضيب أوّل قادمٍ، بطن خصب أو لا شيء، جسد غضّ أو لا شيء البتّة، رغبة، طاهية ماهرة، صالحة للقيام بكلّ شيء، قاصرة مدى الحياة، امرأة للضرب، مسلمة، مهما وجدتُ ذلك معيباً.

تصاعدت النبرة من حولي. كانت مراهقتي صعبة. كنتُ أردّ على الآخرين. وأعلّق على آرائهم. لم أعد أرغب في مناداة من يكبرني بأخي أو أختي قبل اسمهم الخاصّ، إلاّ إذا فعلوا الشيء نفسه معي. كنتُ أطالب بالمساواة. بالإنصاف. بالاحترام واللباقة لقاء لباقتي واحترامي. لم يكن ذلك يناسب الآخرين. إذ لا غنى عن مبدأ التراتبية لتوازن الطبيعة. الخامس يطيع كلّ الذين سبقوه. في العمر. في العمر وفي الجنس. حتى إن كنتُ محقّة. . .؟ وإن كنتِ. حتى وإن كنتم على خطأ. . .؟ حتى وإن كنّا.

إعلان الحرب. لم تكن أعوامي الثلاثة عشر ممتعة. كنتُ لا أُطاق، أُدقِّق في كلّ شيء، في منتهى المزاجية. لم يكن يمرّ عليّ أيّ شيء. لم أكن أدع أيّ شيء يمرّ عليّ. لو كان دوري في تنظيف المشمّع الذي كنّا نتناول الطعام عليه، كان ينبغي أن يقوم

أحدٌ غيري بالأمر نفسه في اليوم التالي، أيّاً كان جنسه. لكن. .
ليس هناك لكن.

ذات مساء، سمعت أمّي، بين تراتيلها ودموعها، شجاراً بين أخي الكبير وبيني.

«ماذا يحدث؟

- طلبتُ منها أن تجلب لي كوباً من الماء وأجابتني: لديك ساقان، اذهب وأحضر الماء بنفسك، اشتكى أخي.»

تلقّيتُ صفعة. كانت الصفعة الثانية في حياتي. الثانية المفرطة. الأولى، كنتُ قد تلقّيتها في السادسة من عمري في لندن، حينما كنّا نقضي عطلتنا فيها. كنا نجتاز ممرّ المشاة حينما ذكّرتُ أمّي بالوعد الذي قطعته لتصحبنا لشراء سيارة صغيرة لأخي. في وسط ممرّ المشاة في لندن، تلقّيتُ صفعتي الأولى. في الثلاثين من عمري، طلبتُ تفسيراً.

«كنتُ متوتّرة الأعصاب.

- لم يكن ذلك عادلاً.

- كلاّ، ولكنني كنتُ مرهَقة. سترين حينما تصبحين أمّاً، لن تكوني محقّة دائماً.»

تفويت فرصتين بالسكوت يساوي صفعة لكلّ شخص.

في الرابعة عشرة من عمري، لم أسكت. استنكرت. ارتفع صوتي بالصراخ والعويل. وجنّ جنوني. ما كان لدبابة، لمدفعٍ على صدغي أن يُسكتني ولا أن يجعلني أتراجع عن مبدأ أنني على حقّ. بالنسبة للثمانية الذين من حولي، كانوا مندهشين لدرجة أنّهم لم يعودوا ينبسون بأيّ شيء. مَنْ كان يظنّ أنّ الفتاة

الصغيرة المطيعة قادرة على التمرّد؟ ولأنّهم ما عادوا يقولون شيئاً، هدأ غضبي قليلاً.

كنتُ أكبر.

لم تكن تلك سوى بداية.

كنتُ أشعر بألم في حلمتَيْ نهديَّ. وفي بطني. ذات يومٍ مشؤوم، حدث لي الطمث. كرهتُ تلك الخدعة التي تأتي دونَ سابق إنذار، ولا تتوقّف بناءً على طلب. كرهتُ الفوط المقصوصة بشكلٍ مستطيل لتُطوى أربع طيّات، وتُغسَل وتُنشف دون شكلٍ آخر من الحميمية. كرهتُ أن يُقال لي امرأة. كرهتُ الاحتفال بهذا الانمساخ مثلما يشاء التقليد. كرهتُ التقاليد. كرهتُ ذلك العار، تلك الروائح الجسدية الجديدة، ذلك الشعر الكريه، ذلك النمو الجبريّ جدّاً. ما معنى أن تصبح امرأة، وإلاّ تكونين وسط الغائط؟ الأفضل، نصف غائطٍ.

كنتُ أشغل الذي يزوّدنا بالفوط طوال النهار. أنزوي لساعات في المرحاض. ما أكاد أغتسل حتى أضطرّ للاغتسال من جديد. لأسبوعٍ في الشهر، لم أكن أحضر الدروس، منشغلة جدّاً بإحضار الماء، والاغتسال، وإحضار الماء من جديد... كان لي وحدي صابون مرسيليا. لم يكن لأيّ شخص الحقّ في الاقتراب منّي، ولمس طبقي أو كأسي. وإلا، لا أعود ألمسهما. كان ينبغي ألاّ يلوّثني أيّ شيء، تحت طائلة استيلائي على المراحيض والماء، القليل من الماء الذي كنتُ أتركه في الأحواض.

كنتُ أفرض مسافات. وإذا ما انتُهِكَت، كنتُ أعضّ.

تشاورت أمّي وأختي البكر. حظيتُ بحق سخرة المراحيض. كان لا بدّ لوضع اليد في غائط وشعر ووبر الآخرين أن يساعدني على إيجاد شكلٍ من الخضوع. تقيّأت. نظّفت وتقيّأت. ثمّ تعلّمت أن أنظّف دون أن أتقيّأ، دون الاستيلاء على المراحيض طوال النهار، دون أخذ كلّ الماء وحدي.

تعلّمتُ أن أنحني إلى قسمين، وأمعائي مقلوبة، وأن أفكّر في الآخرين.

الفصل العاشر

أوّل إضراب عن الطعام

لم تُسفر الصلوات العديدة عن أيّ شيء.

ذات صباحٍ جميل، جاؤوا يخبروننا بأنّ جراية الغذاء المخصّصة لنا قد انخفضت إلى النصف بسبب حرب الصحراء الغربية. كان الشعب برمّته يشارك ويساهم في ذلك التقشّف.

كلاّ، إلى هنا وكفى. كلاّ، أي كلاّ. لم تكن تلك قضيتنا. تبدأ الأمور هكذا ثمّ تتزايد الشروط والضغوط. لم نعلن نحن هذه الحرب، فلماذا نحن؟ ومن ثمّ، أخبرتمونا بأنّ الشعب كان يريد لنا هذا. لسنا الشعب. لا يمكننا أن نكون الشعب وفي الوقت نفسه أعداء الشعب. وكأنّه يُطلَب منّا أن نخدع أنفسنا. هذا لا يجوز. الاعتراض الأوّل. كتبنا إلى الملك لنقول إنّ الأمور كانت حسنة في بدايتها. وإنّ هؤلاء الماكرين يتجاوزون سلطاتهم، وإنّه سيكون عليكم حقّاً، أيّها السيّد الإله والأب والملك، أن تجدوا لحظة لوضع حدٍّ لهم. الصمت.

قُسّمت الجراية إلى اثنتين. وجبتان بدل ثلاث، وكان ذلك مزيداً من الشهية. صلّينا عشرة آلاف مرّة لكلّ الآلهة. من بين الألف، كان لا بدّ أن يكون هناك واحدٌ منهم قد نجا من الصمم

الوراثيّ. روت لنا أمّي تجربتها عند الأخوات في مكناس، حينها كانت يتيمة الأم، وذهب والدها إلى الحرب في سوريا لأربعة أعوام، فوجدها بعد عودته وقد وضعت صليباً في عنقها، فأضيفت مريم العذراء إلى التماساتنا. مريم امرأة، وكان يمكنها أن تسمعنا. هي. سرعان ما عُلِّقَت الصلبان المصنوعة تحت ألبستنا لتحاشي إثارة عدوانية قضبانٍ رخوة.

لم تُسفر الصلوات العديدة عن أيّ شيء.

جاؤوا ذات صباح وسدّوا النوافذ والفتحة الواسعة المطلّة على الباحة. رفعوا حجارة الزاوية حجراً حجراً معنا في الغرفة. وطبقة فوق طبقة، كانت رقعة السماء تضيق وتتسطّح، وتتلاشت لئلاّ يتبقّى منها سوى فتحة تهوية ارتفاعها عشرة سنتمترات. ما إن حلّت العتمة، صادر التفتيش منّا كلّ الكتب، الراديوهات (هذا واحدٍ أفلت من تفتيشهم)، قارئة الأسطوانات، الدفاتر، الأقلام، كلّ الأدوات المفيدة للكائن البشري على أطراف الغابة. الأسوأ من كلّ شيء، هو أنّ العقيد المتنكّر بالزي النازيّ قد انتزع بنفسه صورتّي والدي أمام أنظارنا. رُميت صورتا والدي أرضاً.

آه هذا، كلاّ!

آه هذا لم يكن من الممكن التسامح حياله. كان يجب كتابته: صاحب الجلالة، لقد جنّوا، يجب فعل شيءٍ ما. لا بدّ أن تأتوا لتروا بنفسكم، نظنّ وكأننا تحت سلطة الرايخ الثالث. لم تعد لديهم حدود. افعلوا شيئاً ما، لم تعد تنقص سوى المَراقِب ومحمصة الخبز. صاحب الجلالة، سوف نبدأ منذ اليوم بإضرابٍ

عن الطعام لنتأكّد من أنّكم ستتلقّون هذه الرسالة. موقّعة بدمنا، مخطوطة بدمنا، بقلمٍ أسود الحبر في نسختين. مع فائق احترامنا وتقديرنا، يا صاحب الجلالة!

كانت الشجّات الصغيرة في المعاصم لإعداد الحبر الأحمر توخز، دون أن تُقارن أيّة واحدة منها مع وخزات البطن الخاوي. كانت الأيام الثلاثة الأولى من الإضراب عن الطعام هي الأقسى. الأعوام السبعة لأخي الأصغر استثنته من الإضراب.

مرّت عشرة أيام ونحن نكتفي بالماء المحلّى بالسكّر. الصمت. ينبغي عدم التفوّه بالحماقات، سوف ترى، يا صاحب الجلالة، المعدات ملتصقة بالعمود الفقري، والنخاع الشوكي يمتصّ الدماغ دون استعادة تنفّسٍ. وكلّ هذه المزاريب، البذيئة عبر الأمعاء، ليست من مقامنا. نشبه عنزات شائخة لا تعود تريدها حتى في حظيرة ماشيتك. لمَنْ كان يعتبرنا من عائلته... أؤكّد لك، سيشقّ عليك أن تتحمّل. وبيني وبينكم، لا تقضي رسالة مرسلة بوسائل السيّد عشرة أيام لتطأ درجات قصورك. وإلاّ هناك إهمال. لا بدّ أن تلتفت إلى ما كتبناه أعلاه، يا صاحب الجلالة، إذ قد يكون هناك مَنْ يُخادعك.

مضى أحد عشر يوماً.

في اليوم الثاني عشر انفتح الباب.

الفصل الحادي عشر

مئة غرامٍ من الزبدة

دخلوا مع مئة غرامٍ من الزبدة.

أوقفنا الإضراب عن الطعام بعد اثني عشر يوماً من أجل مئة غرامٍ من الزبدة. قضينا ثلاثة أعوامٍ دون زبدة، ومن ثمّ مئة غرامٍ من الزبدة. كان لذيذاً للغاية.

كانت بداية جيّدة. إذا كانت الزبدة قد دخلت، فهذا يعني أنّه كان من الممكن أن ينتهي كلّ شيء. طعم الزبدة اليوم، سيكون طعم الحرية غداً. خبزٌ مطليٌّ بالزبدة، إنّها وليمة حقيقية. وضعناها على أرغفة كاملة. وكان الانتصار على كلّ أولئك الماكرين! شيءٌ لذيذ. القليل من مربّى المشمش؟ خطوة بخطوة. ما دمنا حصلنا على الزبدة فسوف نحصل على المربّى.

آه، حتى لو سمعنا الملك. ليس هناك ما نقوله. في الحياة لا بدّ من المقاومة. كلّما كان محدّثك رفيع المقام، لزم الأمر أن تُصارع لإسماعه صوتك.

هذا أمرٌ منطقيّ.

لنتّفق.

وحده الملك كان بوسعه السماح لنا بمئة غرامٍ من الزبدة.

كانت فطيرة الزبدة تنحصر في مكانٍ ما. لُفِظَت الزبدة من قِبل الجسم الذي لم يعد يتعرّف إليها. قديمةٌ جدّاً، ذكراها. بلا ضغينة. تُحسن الظنّ، قديمة، بلا ضغينة. التظلّم القادم سيكون المربّى.

سأعطيكِ مربّى.

الفصل الثاني عشر

الكابتن بورو، 1977

بدل المربّى وطعمه، خُصِّص لنا قائدٌ جديد.

دخل بفظاظة، محاطاً بحشدٍ من الحرّاس، مربوع الشكل لا رقبة له، عيناه محتقنتان بالدم، نظرته كنظرة التمساح، ومشيته كمشية الغوريلا، وقلبه من حجر، حليق الرأس. بورو. النقيب بورو.

لا حاجة للالتفات، لن تنسي ذلك أبداً. إنّها المرّة الأولى التي أُصدّقك فيها.

اختير بورو للإبقاء على تصاعد قوّة آلة السحق. كان سيزيّت مفاصلها لئلاّ تحيد عن سكّتها. تلك كانت مهمّته. الرسالة الأخيرة التي كُتِبَت بدمنا وأشارت إلى المعاملة النازية، هو مَن كُلِّف بأن يجعلنا نندم عليها. سوف يعلّمنا، وهو الأميُّ، ثمن الكلمات. علاوة على الجراية المقسّمة إلى اثنتين، سوف يجعلنا نكتشف طعم الغذاء الفاسد. حصل تفتيشٌ ثانٍ، أكثر قسوةً من الأوّل. انكشف أمر الحرّاس الذين كانوا يقدّمون لنا المساعدة وتمّ توقيفهم. والهروب الخياليّ والمدسوس خفية أُجهِضَ. ومُنِعت الطرود الفصلية التي كانت تصلنا. وانخفض

علاج داء الصرع إلى النصف. خلال شهر، رُقّي بورو إلى رتبة رائد. الرائد بورو، وبدأت حياةٌ جديدة.

شيئاً فشيئاً، أعطى النهار الشعور بأنّه لن يعود ينبلج. وقّعت أمّي تحت الإكراه وثائق تجرّدها من جزءٍ من أملاكها. كانت ظلال الشقاء تكتم صرخاتنا. لم يكن رهاب الانغلاق مجرّد رؤية للروح. فقدت الأجساد اندفاعتها. كان المرض، مهما بلغت خطورته، يُعالج بالأسبرين. انتزعت مصادرة الكتب المعنى القليل الذي كانت تمنحه ليومياتنا. زحفت الحمامات على بطونها بحثاً عن حبات الأرزّ دون تعاطفٍ حقيقيّ. كان المذياع الناجي من المصادرة يبثّ في آخر المساء خيطاً من الأوكسجين لنا نحن المتحلّقين جميعاً من حوله. لحسن الحظّ، كان ماشا بيرانجيه وغونزاغ سان-بريس وجوزيه آرتور وبيير بيلمار دقيقين في مواعيدهم.

كان التخيّل ينقذ ما تبقّى. ما تبقّى لنا.

كم مضى من الوقت دون أن نضحك؟ قرنٌ. كم مضى من الوقت لم نبكِ فيه بحرية؟ كان ذلك يأتي. فتحت جرعات الإحباط النفسي مدخلها في الحلبة. ظلّت أسئلة كثيرة دون جواب. لماذا نحن، لماذا أمّ وأولادها وتعيستان ليست لهما أيّة علاقة باسمنا؟ لماذا هذا العناد، هذه القسوة السادية، هذا العالم الخارجي الذي لم يكن يحرّك ساكناً، هؤلاء الأصدقاء الذين لم يعودوا موجودين، هذه الإدانة دون محاكمة. لماذا؟ **لأنّ**.

من الصعب التشكّي. التشكّي هو من طبيعة سوء التربية. يقول مثلٌ شائع في المنطقة: «كلّما اشتكى اليتيم أكثر، أغناه الله

أكثر.» وسرعان ما تحوّل المثل إلى نبوءة.

عادوا في طلبنا.

عادوا يأخذوننا هذه المرة بعد الظهيرة، في وضح النهار.

أوهمنا الأمل المقنط بأنّهم جاؤوا يطلقون سراحنا. يمكنك أن تضحك. يمكنك أن تضحك عالياً.

لا تخشوا شيئاً، لا أحرم نفسي.

سار كلّ شيء سريعاً جداً واستغرق وقتاً هائلاً. كان بورو واقفاً بالباب. فرز الأمتعة التي ينبغي نقلها. علينا فصل أغراضنا عن أغراض الدولة. في أقلّ وقت ممكن. الوقت الممنوح: الحد الأدنى. لم تكن الحمامات، حماماتنا، قد عادت. لا يسعنا الرحيل دون الحمامات، ينبغي الانتظار إلى حين عودتها. لن يكون لأحدٍ أن ينتظر. «في الساعة السابعة مساءً، سوف تخرجون من هنا، بالقوّة إن لزم الأمر.» القوّة لا تبشّر بالحرية. لا تتطلّب الحرية استخدام القوّة. هل غدت المصيبة بلهاء أم أنني أحلم؟ أم أنني ما زلتُ آمُلُ خيراً من رشدك المستعاد. أو بكلّ بساطة، أنا بلهاء جدّاً، وأنت قويّ للغاية.

...

طار عباس الأعمى، حمام شارلي الطائش، مذعوراً من صيحات الحرّاس الذين أصبحوا كلاب حراسة. حلّق لعشرات الأمتار ليتحطّم خلف جدارٍ مسدود. لا بدّ أنّ حمامي كان على ذكاءٍ وحذاقة ليغادر كتفي ويختار الموت. اختار الموت جائعاً، بالتأكيد، ولكن حرّاً. مات عباس من الجوع، حرّاً. حرّاً، خلف جدارٍ مسدود. ولكن حرّاً. حرّاً.

وُضعنا ثلاثاً ثلاثاً في عرباتٍ مغلقة خضراء اللون. كان على الأمّ وابنيها الخروج أوّلاً. تمرّدنا. ليس وارداً القبول بأن ندع ربّ الأسرة وذكريها يسبقوننا. ألن تعتبر أخي الصغير، البالغ ثمانية أعوام، خصماً ينبغي ضربه؟ حسنٌ، لقد راهنت على الجمل الرديء، حسنٌ، بعد كلّ إخفاقاتك، ترى خونة في كلّ مكان، أبناء لبروتوس في كلّ حيوانٍ منويٍّ لكلّ خصية عليها أن تلد، ولكن هنا لا ينبغي تجاوز الحدّ. أؤكّد لك، وهذا لصالحك، أنّك تعرّض نفسك لخطرٍ كبيرٍ في أن تصبح مثار سخرية أمام حشد حرّاسك. تمت التسوية. بقينا ثلاثاً ثلاثاً ولكن هذه المرّة دون اعتبارٍ للجنس. دُفعنا بالقوّة نفسها إلى قعر العربات. كادت الأبواب الجانبية تصفق آخر كعبٍ داخلٍ. اشتغلت المصابيح الدوّارة. كان كلّ شيء منسّقاً. كان ينبغي ألاّ يُترَك أيّ شيء للصدفة. كان أصغر تفصيلٍ مهمّاً كي تركع الشخصية أرضاً، بانقياد. اصطكّت أسناننا. والتهمنا الغبار. بذلت أفضل ثلاثة أجهزة شرطة في العالم خبرتها. مرحى. كانت الحالة النفسية قد كُيِّفَت للحدس في الموت المباشر في اللحظة نفسها التي كان ينبغي الاستمرار في الإقرار بقيمة الحياة في كلّ جزءٍ من ثانية. البقاء مدينين. كان ذلك يستعيد أموراً. البقاء مدينين بثمن الحياة المُنقَذَة بالقطارة. لا شيء يساوي حياةً لا تساوي شيئاً. انصفقت الأبواب على صمت أمواتٍ. أمواتٌ أحياء. على المقاعد، كان ثلاثة حرّاسٍ يراقبوننا، حرابهم مركّبة، وعيونهم مسبلة. كانت الحالة مضحكة دون أن تمنح مع ذلك الرغبة في الضحك. عند أقدامنا، في سلالٍ مصنوعة من أغصان الصفصاف، كانت بضع

حمامات مستعادة تبدّد دموعنا. إذاً هذا لن ينتهي أبداً.

لم تكن تلك سوى البداية.

أَتتلفّظ بحماقات؟ أوقف لعبتك، ورغباتك، وتلذّذك. الانتقال من الحب إلى الكراهية، يروق لي كثيراً، ولكن من الحبّ إلى السطحيّة، أمرٌ مخيفٌ حقّاً. حتى ولو كنت ابن عائلة نبيلة، كنت ملكاً، كنت ممثّلاً للإله، كنت إلهاً، عليك أن تستيقظ، يا عجوزي. كن فاضلاً إن كنت لا تستطيع أن تكون أفضل. أخيراً وباختصار، لا أستطيع إنقاذ تاريخي وتاريخك، كرامتي وكرامتك، رقبتي ورقبتك.

لقد فات الأوان.

عبرنا الأطلس في الاتجاه المعاكس وهذه المرّة أمنعك من أن تسألني أيّ أطلسٍ من الثلاثة التي تملكها ابتلعتُ شزراً. لم أعد أذهب إلى المدرسة وأتنكّر بذلك لجغرافية بلدك. حسناً. كنتُ أقول إذاً بأننا تحمّلنا الأطلس. كان الجنود المتّكئون على حرابهم يتقيأون في المنعطفات بين أقدامنا، ويعتذرون، مرتبكين. انظر، هم أيضاً، كانوا يعتذرون لكونهم مرضى. مشقّة الرحلة، السرعة، العتمة، المدّة، الجوع، العطش، الحرارة، هديل الحمام، البنادق المودعة بين أيدينا المضطربة عند تقيّؤٍ آخر، أيدينا الهزيلة حول جماجم معتمرة. والرائحة. وعلبة السردين العمياء تلك التي كانت تتدحرج دون أن تتوقف أبداً. تذهب بسيطة نحو نهاية العالم، دون شهودٍ، ولا أحد.

في الخارج، كان على أحدٍ ما أن يكافح لكي يعثر على

أثرنا، هذا أكيد. خمسة أعوام من الغياب. كان يمكن لذلك أن يثير أسئلة، ويوقظ شكوكاً. هناك أناسٌ مهنتهم البحث والتحقيق. ومن ثمّ، كان والداي في مراتب عليا بما فيه الكفاية لكي نأمل بأنّهما قد تركا خلفهما بعض الذكريات. لقد نام الشاه في بيتنا وهذا ليس بالأمر الهيّن. وحكم ديغول على والدي غيابياً بالسجن المؤبّد مع الأشغال الشاقّة، وهذا ليس قليلاً. كانت أختي تعرف آلان ديلون. وأخي يعرف ستيف ماكوين. وكانت أمي تعرف أمّ الملك وجميع أولادها وأحفادها. وكلّ هذا ليس بالشيء القليل أبداً. كلّ هذا وليس سوى هذا قد يترك دليلاً على وجودنا. أو، في الواقع، ترك شكّاً عن اختفائنا. في مكانٍ ما أثرٌ ما عنّا من شخصٍ ما، من حبيبٍ، عاشقٍ، امرأة حياته، من دائنٍ، مصرفيٍّ، حاويةٍ، شيءٍ قليلٍ عنّا مكتوبٍ في دفترٍ مدرسيّ، سجلّ جمركي، قلبٍ صغيرٍ قد لا يزال ينبض لأحدنا. ذرّة من شعورٍ مختلف قبل تبخّرنا التام. باستثناء شقيقك عبد الله الذي تلقّينا منه مجموعةً من الكتب، لم يسعهم جميعاً أن يثنوك عمّا فعلته بنا دون كلمة، باستسلام.

هذا مؤكّد. ولذا صادرتُ منكم الكتب ووضعت عبد الله تحت الإقامة المراقَبة.

لم تفعل ذلك.

برأيكِ؟

الفصل الثالث عشر

بير - جديد(*)

وصلنا في ليلة اليوم التالي. تابعَنا حشدُ الحرّاس وأحاط بنا. دارى بورو تعبه في قبّعة جلبابه. تحت تلك القبّعة المخطّطة بالأسود والكاكي، حافظت عيناه التمساحيتان على بريقهما الأحمر. قادنا ممرّ إسمنتي إلى مبنى على شكل حرف L. أيضاً مبنى. هذه المرّة، كان بيتاً لمستوطن فرنسيٍّ سابق حوِّل إلى سجن. كان حشد الحرّاس يتابعنا ويحيط بنا عن كثب. أشجارُ تينٍ وثلاث نخلات رائعة مزروعة في الباحة ذات التربة المغراء. والسور مكوّنٌ من ثلاثة جدران عالية من الحجر الإسمنتي العادي طُليَت على عجلٍ بالكلس، مع مَراقِب في زواياها. في كلّ مَحرَسٍ ذي سقفٍ من الصفيح المموّج، كان حارسٌ يراقب، وبندقيته الرشاشة بين خصيتيه وكعبيه. كانت بُقعٌ ضوئية مائلة للصفار تغذّيها مولّدة كهربائية تنير عموم المكان. كان المحرك يُشغَّل أربع ساعات في اليوم، بغية إملاء صهاريج الماء، ثمّ يُطفأ في الساعة التاسعة مساءً. ذكر لنا بورو القوانين الجديدة وأشار

(*) بير-جديد: مدينة تقع بين الدار البيضاء وأزمور.

بإصبعه إلى زنازيننا، واحدة بواحدة. ماذا سمعنا ورأينا أوّلاً؟ كان الأطلس قد أرهقنا. أربع زنزانات. أربع لتسعة أشخاص. في مؤخّرة المبنى L، كانت الزنزانة الأولى التي سيحلم فيها أبناء بروتوس أحلاماً جميلة. والزنزانة الثانية الواقعة في يمين الممرّ خُصِّصَت للمرأتين اللتين لم يكن لديهما أيّ شيء تفعلانه هنا. الثالثة، الأوسع، ستضمّ البنات الأربع. والزنزانة التي تقع في رأس المبنى L للأمّ وابنها البالغ ثمانية أعوام حيث بات معلوماً بأنّهما لا ينفصلان عن بعضهما. والحمامات؟ لا مشكلة بالنسبة للحمامات، مكانها في الباحة.

كانت أربعة أبواب مصفّحة رمادية اللون أمامنا. شيءٌ ما كان يقول لنا بألاّ نتوجّه إليها.

«لماذا تفريقنا وحبسنا في الليل.

- لحمايتكم.

- حمايتنا ممّا، ممّنْ، توقّفوا، ليس هناك سواكم يريد إيذاءنا...

- حمايتكم هذه الليلة، الخطر هنا في كلّ مكان.

- أين نحن؟

- لستم في أيّ مكان.»

لا مكان ليس مشجّعاً.

«نحبسكم هذا المساء فقط، هذه الليلة وحسب، غداً في السابعة صباحاً ستحظون بفنجانٍ من القهوة. سنتحدّث عن ذلك ثانية مع القهوة.»

أثّر الإنهاك على مقاومتنا، وبصيرتنا. ومن ثمّ، ما جدوى أن نكون حادّي الذهن بينما نحن الوحيدون الذين ليس بوسعنا فعل أيّ شيء؟

لُعِبَت الساعات الأربع والعشرون الحاسمة بفظاظة ونجح الأمر. بعد ذلك، مثل كلّ مرّة، كان الأوان قد فات.

فات الأوان، دارت المفاتيح في الأقفال.

كنّا داخل الداخل، منفصلين عن بعضنا في الليل.

لا أرغب في الحديث عمّا تضمّنته الليلة الأولى في الزنزانة.

الأسوأ، كان الفجر الذي عاد وكأنّ شيئاً لم يكن.

في السابعة صباحاً، فُتِح كلّ باب، الواحد تِلْوَ الآخر، من اليسار إلى اليمين. وضِع فنجان قهوة بعد آخر على المسطحة، وأُغلق بابٌ قبل أن يُفتَح آخر، الأمر الذي أرغمنا على أن نميل، خشية أن نبقى محبوسين ومنفصلين عن بعضنا.

ماذا تفعلين؟ ماذا تحبّين؟ مَنْ يمسك لكِ المرآة؟

ما إن حصلوا على دليل خضوعنا، سمحوا لنا بالالتقاء ببعضنا في الباحة: لم نكن نبالي بالقهوة، احتجنا إلى الورق، الكثير من الورق للمسودات، الكثير من المسودات وقلم.

«سنكتب إلى الملك وسترون ما سترونه.»

كتبنا.

الصمت.

لم يروا شيئاً مختلفاً يحدث، سوى سلطتهم المعزّزة.

أثناء تلك الليلة الأولى في الزنزانة، حلمت أمّي حلماً.

حلمت بالرئيس بورقيبة يقول لها: «كوني شجاعة، ستُسجنون هنا عشرة أعوام.» مهما يكن. ما شأن الرئيس التونسي بهذه الحكاية؟ كان ذلك أمراً واهياً. عشرة أعوام، كان محض جنون. كنّا في العام 1977، وكان أخي الصغير يلحّ على الهروب كخيارٍ وحيد. كنّا نعتقد بأن القرار متعجّل وخطير نظراً لكلّ هذه المَراقِب والبنادق الرشاشة. سوف ننتظر لبعض الوقت، ونكتب إلى الملك، ونلتمس رحمته. بدأنا نتحدّث عن الرحمة، وعن العفو الملكي. حلّ الشعور بالذنب محلّ اليقين بالبراءة. استحالت قوّتنا. والأبواب المصفّحة التي كانت تحبسنا في الليل هدّدت بحبسنا في النهار أيضاً. الزنازين تصنع السجين. يجد السجين خطأه ويطلب المغفرة من جديد. الصمت يعظّم الخطأ. الزنزانة تبقى على حالها. يُظهر السجناء حظّهم بأنّهم ما زالوا طلقاء طوال النهار في الباحة. سقط أخي الصغير في الباحة. غسلته أمّي. تقيّأ الأدوية المنوّمة لأختي المصابة بداء الصرع. محاولة انتحارٍ في التاسعة من العمر يأساً. أراد أن يموت لإنقاذنا. حتى وإن مات، ما كان لينقذنا. وكانتقامٍ منّا لذلك، صودِرَ العلاج المنقوص للصرع. ذُبِحَت الحمامات، أربع منها يومياً، حتى آخر واحدة منها، وقُدِّمت لنا وقد تدلّى اللسان عبر المنقار على الفطور. رفضنا تناولها. بالناقص، ليس هناك لحم فاسد لمدّة شهر. بالناقص. مات إلفيس بريسلي في ممفيس في 16 آب (أغسطس)، يوم مرور الذكرى السنوية الخامسة لموت أبي. كانت السهرة رقصة الروك اند رول. كانت والدتي مغرمة بإلفيس إلى درجة أنّها جعلت والدي يغار خلال السنة الأولى من الزواج.

ضَعفت بطاريات الراديو كثيراً. وانتظرنا ثلاثة أشهر قبل أن نتلقّى أربع بطاريات جديدة، وكانت تلك مدّة طويلة. كان أحد الحرّاس يجازف بحياته وحياة أولاده لكي يرمي إلينا كلّ ثلاثة أشهر بأربع بطاريات وقلمي بيك من فوق جدار السور في الوقت المحدّد حين يتم تبديل الحرّاس في المَراقب. جعلنا من البطاريات الأربع المغلّفة بلفافاتٍ نسيجية حلقة شعر لكي نبقيها وسط الحرارة. جعلتها حرارة الجسم تدوم لفترة أطول. اكتشافٌ بالتجربة. كان الراديو الذي نجا من العديد من حملات التفتيش مخبّأً تحت بلاطةٍ أبعادها عشرون سنتمتراً بعشرين في إحدى الزنازين.

فرض الروتين نفسه. أيامٌ من السير دائرياً ومباراة كرة قدم مصنوعة من القماش، ووجباتٌ في ساعة محدّدة، مطبوخة على نار الحطب، إن شئتم، وترديد الذكريات ذاتها. رُدّدت الذكريات ذاتها دون توقّف، راجعناها وصحّحناها لمخادعة الضجر. واظبنا على العادة والإيقاع والسرعة القصوى للثواني والأشهر والسنوات في تلاحقٍ إلى حدّ أننا بدأنا نضجر جدياً.

كندا. سوف نهاجر إلى كندا. بعد أن جُلنا في فرنسا، وقمنا بعشر جولات حول العالم، اخترنا كندا. سيكون ذلك البلد كبيراً بما يكفي لاستقبالنا. سنمتلك عقاراً واسعاً مع بحيرة، وأشجار تنوب، وجبال، وفضاء. سيكون هناك بيت مركزي لأمّي حيث سنتناول فيه الوجبات معاً. وسيكون من حوله لكلٍّ منا بيته، زوجته أو زوجها، وأطفاله أو أطفالها، ولن يفرّقنا أيّ شيء أبداً. وسنصنع عسلاً ونربّي ماشية. سنكون مستقلّين وأحراراً. ثملين بالحرية. ولأننا سنكون في كندا، ستكون هناك قنادس. أوحت

لنا القنادس بلهجةٍ. ستفيدنا لهجة القنادس في أن نتواصل فيما بيننا دون أن نجعل الحراس يفهمون ما نقوله. كيت تعني «التنبّه». ميشيش جوڤو: «خطر». لا ساغو: «استنفار عام».

بعد جولةٍ حول كندا، وعبورنا العالم بالاتجاه المعاكس، عاد الضجر.

لاجتناب الضجر، قرّروا فصلنا عن بعضنا في النهار أيضاً.

الفصل الرابع عشر

سبعة أعوام من التفريق

النموّ في الظلّ أمرٌ غريب. لا ساعة. لا مرآة. لا موسى حلاقة. لا ملقط شعر. لا معجون أسنان. لا شامبو. لم تعد هناك موسيقى. ولا كتب. ولا أحذية. ولا ألبسة. ولا ماء ساخن. ولا طبيب. ولا بوصلة. ولا جليد في الثلاجة. ولا مداعبات. ولا نظرة حنونة. ولا... توقّفي، سيُقال بأنّكِ تشكين. آه حسنٌ. كنتُ أعتقد أنّك تريدين الاحتفاظ بعزّة النفس. آه نعم، هذا صحيح. تحيا عزّة النفس.

إنّه لأمرٌ رائع ترك أقنية المجارير بين الزنازين. كانت تسمح لنا أن ندسّ فيها طرف أنبوب ريٍّ عثرنا عليه في الباحة لكي نتواصل فيما بيننا. من الفم إلى الأذن، من الفم إلى الأذن، كانت الآلة بدائية، ولكنّ الاتصال كان يجري بنجاح. من صندوقي مكبّرات صوت مدوّرة أسطوانات مصادَرة والتي زعمنا بأننا نستخدمهما كطاولتين ليليتين، انتزعنا ستّة مكبرات صوت. ولأنّ أسلاك التوصيل كانت قصيرة جدّاً لم تسمح بنقل الصوت من زنزانةٍ إلى أخرى. جدلنا من نوابض حقيبةٍ، ومفرشٍ، كلّ ما كان يمكنه أن يكون ناقلاً وكلّ ما وقعت عليه يدنا. موجب،

سالب، تجربة. نجح الأمر. تلقّى أخي في طرف المبنى مكبّره الصغير تحت كيسٍ بلاستيكي في قصعة العدس خاصّته. تجربة رقم 2. واحد، اثنان، ونجح الأمر. سوف يمكنه الاستماع إلى الراديو في الليل والاستيقاظ وهو يشعر بأنّه أقلّ عزلة. في الفجر، أُعيد إغلاق البلاطات بعناية بعد وضع المعدّات في حفرةٍ تحسّباً للتفتيش المقبل. من حيث التفتيش، كانت جولتان مبرمجتان أسبوعياً بالإضافة إلى بعض المداهمات المرتجلة بغية تحقيق عنصر المباغتة. كانت أدنى ضجّة مثيرة للشبهة داخل الجُحر تجعلهم يهرعون. كان مبدأ التفتيش بسيطاً. وغالباً ما يحدث في الصباح. يدخلون أربعاً، ضابط وثلاثة شرطيين. يفتّشون زنزانة بعد أخرى، ويقلبون الحشايا المصنوعة من القش، وينقرون بكعب نعالهم على الأرض ليتأكّدوا أنّ أيّة بلاطة لا ترتجّ ولا تصدر صدى، وينقرون على الجدران في مواقع مختلفة، ثمّ ينصرفون وينقرون في الزنزانة التالية. قبل إغلاق كلّ باب، كان أحدنا يضع القصعة الفارغة على الدرجة الأولى أمام الباب المصفّح. ثمّ كانوا يأتون ويفتحون الباب إلى آخره من الاتجاه الآخر فيستردّ أحدنا القصعة المليئة. كانت الزنزانة رقم 3 انطلاقاً من اليسار هي المكلّفة بطهي الطعام على نار الحطب. لم تكن قارورتا غاز كافيتين لإعداد الطعام طوال شهرٍ كامل. فكانت الجراية الغذائية تُعدّ في الأيام المتبقّية على نار الحطب. كمثل السحر، وقعت سخرة المطبخ على المرأتين الغريبتين عن الاسم الملعون، عن لغو ذلك الهيجان. كانت التراتبية تسود كلّ مكان. كان الدخان وسواده دون تهوية طوال عشرة أعوام من نصيبهما.

لم تكونا سليلتي عائلة كبيرة. وحينما تُقطّع العائلة الكبيرة قِطَعاً، تُمزّق عامة الناس إلى مزَقٍ. هذه هي حال الدنيا. هكذا تنصرف الدنيا وتتحطّم. ستلزمني عشر حيوات كي أشكرهما. عشر حيوات لأكفّر عن حظّي في كوني سليلة عائلة كبيرة. عشر حيوات على الأقل لأطلب منهما المغفرة.

المغفرة أختاي الصغيرتان.

المغفرة.

المغفرة أختاي العزيزتان.

المغفرة.

المغفرة باسمي وباسم كلّ أهلي.

المغفرة باسم كلّ صنوف الظلم.

المغفرة باسم كلّ الصُدَف السيئة.

المغفرة ركوعاً.

المغفرة منكما، ومن عائلتيكما، ومن كلّ النسل الذي مُنعتما من إنجابه إلى الدنيا.

المغفرة.

كان الانحناء لوضع القصعة، والانحناء لاسترداد القصعة تمريناً يومياً للإذلال. ثلاث مرّات في اليوم يتكرّر الانحناء المهين نفسه. أيّة شخصية كانت ستنحني لو فرضت الحاجة للغذاء عليها ذلك. أظهر الجوع وجهاً جديداً. إنّه مجنونٌ هذا الإخطبوط المجنون وسط الصدر. كانت محاجمه تمتصّ دماغي بالمصّاص وهي تمتصّ معدتي. آلة حقيقية للجنون. وجبة واحدة في اليوم.

قصعتان من الماء الساخن المملّح والمطيّب ووجبة في المساء.
كانت الجرايات الأسبوعية تكفي لوجبة يومية واحدة فقط، في المساء. في المساء عمداً لننجح في النوم. انتبهي، إنّكِ تَشْكين.
أنا لا أشتكي، أنا أروي. صدّقني، كنتُ سأفضّل أن تكون لديّ قصة أكثر غرابةً لأرويها. ثمّ، اسكت، أنت تنهكني. آسفة، إنّه يتعاطى كلّ شيء. فكنتُ أروي الإحساس المجسّي بالجوع. إنّه ينهش، ينهش وفجأةً يغطّي المخّ. يخلق وسواساً جهنمياً. مدوّخاً. تصاعديّاً. الجرعة الأخيرة في القصعة كانت تُمتَص مع نظرات ملقاة خلسةً على الجار في الحشيّة، بالنسبة للذين لديهم واحدة منها. كان الأكثر تبصّراً يخفي أحياناً بين القش طرف رغيفٍ للأوقات العصيبة. وحينما يستعيده يوم يشاء لتناول وجبة خفيفة، يفعل ذلك تحت النظرة الحاسدة للذين يحبّونه ويحبّهم. كان ينزع عنه بعر الفئران ويسدّ أنفه لئلاّ يشمّ رائحة البول - بول الفئران - ويأكل بسرعة تجنّباً لاعتداءٍ محتَمَل. ثمّ يمضي نهاره في مطاردة الفئران وهو لا يخفي ابتهاجه بتفجير بطنها على الأرض. الفأر ضعيف. كان كلّ فأر فتات خبزٍ إضافيّ. وكان ذلك مهمّاً. بعد ذلك، كان كلّ شيء يُحسَب. كان كلّ شيء مهمّاً. للصبيان جرايةٌ مضاعفة. من أجل حطبة الميلاد القادم، كان علينا أن نوفّر بعضاً من الزيت والسكّر. سيكون البيض الفاسد المجفّف في الهواء أقلّ رائحةً. وسيعطي اللحم المتفسّخ المنقوع في الزيت والثوم نكهةً بعيدةً عن اللحم المصفّى. والخبز اليابس سيُحفظ جيّداً. كان الوقت للتفصيل. لما هو فردي. لأصغر تفصيل. لكلّ واحدٍ.

في الباحة، كانت حبات التين تقطر عسلاً. كان أيلول (سبتمبر) مغادراً. لم تكن السنة مهمّة، ما زلنا تسعة على الموعد.

الفصل الخامس عشر

1981، أعوامي الثمانية عشر

لن آكل في حياتي تيناً بتلك النكهة. مع ذلك فتّشتُ عنه في كلّ مكان. أعدتُ البحث عن تلك النكهة في بروڤانس، حتى تخوم لوبيرون وتوسكانا. لم أتذوّق قطّ تيناً بتلك النكهة. تحت ثلاث نخلات رائعة، كانت نبتاتٌ فتية تقدّم قلوباً صغيرة حنونة. كانت غرسات الصّعتر البريّ تتيح لنا تطييب اللحم. وكان التراب الأمغر الأصفر يوفّر لنا ما نغسل به جسمنا وأسناننا وآنية المائدة. ترابٌ صلصاليٌّ يُزيل الدّسم وينظّف ويترك الجلد ناعماً. من نوع ثلاثة في واحد: الحسن الثاني، لأنني أرغب في ذلك كثيراً.

كانت الساعة اليومية من النزهة مليئة تماماً؛ دائماً زنزانة بعد الأخرى، نزهةٌ بعد الأخرى، بعد جني الثمار، التنفيس بالدوران وعيوننا مرفوعة إلى السماء. ستون دقيقة من السماء، من الهواء، من المطر أو الشمس. ساعةٌ من المشاعر الحسّية دون تمهيد. من قِدر الضغط إلى الهواء الطلق، إلى قِدر الضغط. ساعةٌ من السماء والاستكشاف. في تلك الرقعة من السماء، كانت الآثار البيضاء لعبور طائرات تدعنا نفترض المكان الذي كنّا فيه. هناك مطاران مهمّان نظراً لكثرة الطيران، ونحن بينهما.

إذاً، نحن بين مدينتين كبيرتين. أن نكون قد نُقِلنا من الصحراء وقُرِّبنا من العاصمة وجرى تشديد ظروف اعتقالنا كان أمراً محيّراً ومدهشاً. كلاّ، كلاّ، لقد قرّبونا من العالم المتمدّن لتسهيل إطلاق سراحنا. كتبنا إلى الملك لنشكره على اختيار وجهة النظر هذه، هذه الرؤية الثاقبة، الجديرة بذكائه النيّر، الذي أنقذ دفعة واحدة كرامتنا وكرامته. مع عظيم الامتنان ودائم الإكبار، يا صاحب الجلالة.

الصمت.

سبعة أعوام. سبعة أعوام دون أن نرى بعضنا. دون أن نرى بعضنا نكبر. نشيخ. سبعة أعوام دون أن تلتقي نظراتنا. سبعة أعوام دون أن نلمس بعضنا. دون أن نشمّ رائحة بعضنا. دون أن ندغدغ بعضنا. دون أن نصفع بعضنا. ثلاثة عشر عاماً ونحن لم نتبادل وضع قشطة شانتيّي على رأس أنوف بعضنا. سبعة أعوام بلغتُ خلالها الثامنة عشرة من عمري. تسعة زائد تسعة، ثمانية عشر. متى ستكون الأعوام القادمة؟ هذه وكفى. دقّت أعوامي الثمانية عشر في منتصف الليل، وسأحظى بها أيضاً وكما أشاء، وفي الضحى. تلك السنوات التي جعلتني أعيشها لا تُحسَب أو تكاد. في الواقع، مات شقيقك. بكيناه. لم أمنعكِ قطّ من البكاء. اسكت، عمري ثمانية عشر عاماً، وأعتقد أنه بوسعي، أنا البلهاء المسكينة، أن أحصل على ذلك أيضاً.

...

كان يوماً صيفياً، يوم أعوامي الثمانية عشر. لم يستطع

مارك، ماركي الجميل، المجيء. كان فرانسوا ميتران رئيساً. لم أعد أريد الزواج من جوني هاليداي منذ أن فضّل عليّ بابيت. أجيد غناء غابرييل من دونه. وسأصبح مغنّية من دونه. كان العالم يحيا ويدور ويتألّم من دوني، باستثناء أنّ هذا العالم الموازي لم يعد عالمي. فكنتُ أنفصل عن ذلك العالم المنصف، إلى جانب من يجد القوّة لتوجيهه على نفسه معكم من كلّ جهة، وأنا على حافة طريق. كنتُ أصبح المركز، الدوّامة، والكرة الأرضية تدور من حولي. أنا. لم أعد أعرف أن أحسب لا طفولتي ولا شبابي، ولا الحياة التي شوّهتهما وأيضاً على نحو أقلّ الفراغ الذي يعرض نفسه كمستقبلٍ مباشر. كانت الدوّامة تشدّني وتلفظني ككلّ بداية. إلى العدم. لم أعد عدماً وسأصبح كلاً في الوهلة نفسها. عدمٌ سيبتدئ من العدم. عدمٌ سينطلق من العدم. عدمٌ سينبعث من ذاته. كلٌّ لم يكن كلاً إلا بالنسبة لذاته. سُرّة العالم. ضحيّة.

أصبحتُ الأسوأ.

ضحيّة.

في ذلك اليوم بين الكثير من الأيام الأخرى، كانت أعوامي الثمانية عشر تهاجمني. تسعة زائد تسعة. تسعة في الداخل، تسعة في الخارج، إنّها ثمانية عشر عاماً ملء الإناء. ثلاث سنوات من سبعة دون أن أرى أمّي. كانت روزنامتي تبدأ وتتوقّف هنا. محرومةً من أمّي، كانت أعوامي الثمانية عشر تتساقط بغيابها دقيقةً بدقيقة. تلقيتُ عبر طرف أنبوب الري الواصل بيننا خاتماً من ماركة كارتييه. ثلاث حلقات ذهبية مختلفة متشابكة. خاتمٌ

جميل في الخنصر. خاتم كارتييه حقيقي لثمانية عشر عاماً زائفاً.

شكراً يا أمّي.

كما حظيتُ بجراية مثلّثة من العدس وباهتمام الجميع عبر الإسمنت. أظهرت أختي التي تكبرني بعشرة أعوام جمال يومٍ رائع. اغتمّ الآخرون، جميع الآخرين، في أعلى أو أسفل الحاجز، تماماً وتألّموا لكوننا ما زلنا محبوسين هنا لسنة إضافية.

أظهر كلّ عيد ميلاد حكماً وعبثيته. تسعة تواريخ لعيد الميلاد كلّ عام، كانت تسع ضربات هراوةٍ على رقبة كلٍّ منّا.

سبعة أعوامٍ من الأبواب الرمادية وصخب المفاتيح. سبعة أعوامٍ من صخب المفاتيح في التوقيت نفسه. سبع سنواتٍ من ضجيج الجِزَم العسكرية وصليل المفاتيح في الأوقات نفسها. وصفنا أنفسنا من طرفٍ إلى طرفٍ من طرفي الأنبوب مثلما تخيّلنا الآخر. كان الماء الآسن في قناة المجرور يرسم أحياناً انعكاساً مشوّهاً لوجوهنا. التخيّل تصديق لذلك. تبادل المحبّة هو الوجود. ومن ثمّ بلغتُ العشرين من عمري دون تلقّي هدية. رصّع خاتم الكارتييه الأعوام الثمانية عشر والعشرين والثلاثين للبنات. فقد خاتم الكارتييه الحقيقي سحره. لم يعد يرصّع ابتسامتنا. كانت المولّدة الكهربائية تواصل الهدير بدءاً من الساعة السادسة مساءً. إطفاء الأنوار في الساعة التاسعة. في التاسعة وخمس دقائق، فتح عُلب القواطع لنوصل إليها مكبّراتنا. بالصدفة، اكتشفنا في القواطع أسلاك توصيلٍ جاهزة للاستعمال. ما إن يحلّ الظلام، ينوب القليل من الزيت وفتيلة عن الكهرباء.

كان الظلام دامساً كلّ الوقت، وكل ذلك الوقت يثير كلّ الحواس. السمع أوّلاً. كان كلّ حفيفٍ يُسمَع. وكلّ نعلٍ فيه مسامير يُحدّد. وقع الخطوات، الروتين، الطوارئ، الإعياء، كلّ شيء كان واضحاً للأذن. كان توقّف الخطوات يشير إلى موقع مَرقَبٍ خلف الجدران. نفث التبغ الداكن، والسعال، والبصقات. كانوا خلفنا تماماً بين سورين، كجلدٍ ثانٍ قبل الهواء الطلق. عند إطفاء الأنوار، كانت أختي تروي لنا حكاية سرعان ما تحوّلت ملحمةً، أسطورةً، موسوعةً. كنتُ أكتب بخطٍ رفيع حكايتها على ورقٍ مقوّى. حينما كان الحرّاس يسلّموننا المواد الغذائية في علبٍ كرتونية ، كانت «آذان» الكراتين تُنزَع وتُبلّل وتُمسَّد وتُكشَط حتى نحصل على صفحة شبه صقيلة، نوع من الورق جديرٌ بـ اسم الوردة. كنتُ أُعيد نسخ تلك الكلمات بقلم بيك على إيقاع كلامها. كانت تغوص في خيالها اللامتناهي وكنّا نحلم بشخصيات رائعة ومغامرات غرامية وحبّ وجنس وبلادٍ بعيدة. وحده الموت كان مقصيّاً من حكايتها. لم يكن لأيٍّ من الشخصيات الخرافية الحقّ في أن تموت. حينما كانت تميتها، كنّا نحييها من جديد بالتمرّد العارم من خلال طرف أنابيب الري. بحلول المساء، كانت تستأنف حكايتها من الفصل السابق. وكانت الشخصية الخرافية تعود أكثر حيويّة وجمالاً من أيّ وقت مضى. على مدى ساعات، كانت تطوف بنا البلدان، بعيداً جداً، في روسيا القيصرية، تحت الثلج، في الإمبراطورية النمساوية الهنغارية، في فرنسا، تحت الشمس الأوكرانية ووسط حقول القمح على مدى البصر. حينما دانت تنام منهكة وسط الظلام،

وعلى شفتيها مكبّر صوت وطرف أنبوب، كان أحدنا يرتّب التركيب والآخر ينفخ على الشمعة.

في اليوم التالي، لا يزال هناك هنا، ولاسيما مكان آخر.

كانت الجرذان تدوس البلاط. تدخل في رتلٍ من تحت الأبواب المصفّحة. يجعلها القحط في عالم الأحياء تجرؤ على التمرّد. اعتدنا على الجرذان. ولكن هذه المرّة يتعلّق الأمر بهجومٍ منظّم. تبعت الجرذان بالعشرات قائداً. وطرطقت قوائمها المخمّلة. ونشرت عيونها الملعلعة مجاعتها في كلّ زاوية من كلّ زنزانة. يجب أن يعيش المرء ذلك ليصدّقه. غزا جيشٌ منظّم على نحوٍ رائعٍ جدراننا. لم تترك العدوانية أيّ مكانٍ لتفوّق الإنسان الجسدي. الجرذ، هو كتلة من العضلات بمخالب وأسنانٍ قاطعة. الجرذ، يقفز دون وثّابة لارتفاعٍ يزيد على مترين. خرمشات، ونهشات، وضربات انتقامية دون القدرة على توجيه الضربة القاضية. معضّلة جدّاً، جائعة جدّاً، عديدة جدّاً، لاحمة جدّاً. الجرذان تحقد. تهاجم. تتبع الروائح. تتحادث. تتشاور وتعيد ترتيب إستراتيجيتها في الوقت المناسب. الجرذ لا يستسلم إلاّ ميّتاً. مات جرذٌ، فهرب كلّ الآخرين. كانت المعركة مرعبة. سقط جرحى في المعسكرين. ثلاثة كائنات بشرية تمكّنت من قتل واحدٍ منها. تناثر الدم حتى تحت الباب. لا بدّ من تحديد مملكته. احتفظنا بالغنيمة الوحيدة، الفريدة، البراغيث بالآلاف، وهرب الآخرون مرتبكين. لم تأتِ الجرذان بعد ذلك قط جماعياً. تمّ الأمر. في الوقت ذاته، كانت اللقالق تنزل على

المحارس وتغذّي أفراخها. بعد طرد الجرذان، قد نحسن التعامل مع أفراخ اللقلق. ولكن لأسبابٍ أخرى. بفضل الضفادع والثعابين، تسمن وتكبر مؤخرتها. بخلاف الجرذان، كانت اللقالق جاثمة هناك عالياً على قبّعة مراكز الحراسة، في كبد السماء، فوق السطح الصفيحي المموّج، تماماً تحت الشمس الدافئة. كانت الكراهية تنمو كلّما أبرزت جوانبها السمينة. رشّة ملح وقليلٌ من الزيت ومن الصّعتر البرّي ونار حطبٍ قويّة ستنال من غطرستها. لقلقٌ مشويّ. فرخ لقلقٍ مشوي. ثلاثة أفراخ لقالق مشوية جيّداً. هَمْ. . . نمّى الجوعُ خيالنا. كانت الرحمة نسبية تماماً. أذكى كلّ اصطكاك منقارٍ الحقدَ. كان الحقد يأتي من المعدة. كانت المعدة تفتح فكّي قرش. أصبحت اللقالق فرائس خارج المتناول. وبات ضحكها لا يُطاق. فلتبقَ في الألزاس، هذه المومسات ذات المؤخّرة الضخمة. فلتكفّ عن اللحاق بنا في كلّ مكان لتعلن في كلّ عودة، كلّ كانون أوّل (ديسمبر)، سنة إضافية. في الوقت ذاته، تبنّينا صغار الفئران التي تيّتمت من جراء ما فعلناه وتقاسمنا معها الفتات كلّ يوم. في الوقت ذاته، هناك الخير والشرّ. خير الذات وإغواء الشرّ. في ذلك الكوخ، كان كلّ شيء قريباً جدّاً، كلّ شيء يتصادم، كلّ شيء يصدم، يختلط، يشوّه ويمتصّ. كانت الأسنان المتقيّحة لا تزال تُظهر ابتسامةً وراء التكشيرة. كانت البواسير الضخمة كخصيتي ثور تنزف دماً، والعيونُ تذرف دموعاً صافية وصادقة. كان فقدان الشهيّة يخفّف الألم. ونوبات الصرع تقطع اللسان إلى قطعتين وتنتهي دائماً. الدورة الشهرية وأعمالها المتعبة اختفت عند كلّ الإناث تقريباً.

سنّ اليأس هو سنّ معيش حيويّ. منح فقر الدم سحنة غربية ودفّأتنا نوبات الحمّى. وأظهرت القدرة على الجوع امتداد قدرة التحكّم بالذات. كان أقلّ ضعفٍ، المرض، الإحباطات النفسية محظورة. طبعاً، كان هناك ما كنّا أكثر تساهلاً حياله. البشر، أينما كانوا، بشرٌ لهم حساسياتهم وأفضلياتهم.

كانت الحداثة تأتي من مبدأ الخلاص.

كان العليل، الضعيف، السقيم يُبعَد إلى حين شفائه.

كان لذلك تأثير على معنويات الجماعة.

امشِ أو مُتْ.

كان التعاطفُ يعادل الرفقَ، والرفقُ الاستسلامَ، والاستسلامُ الانهيارَ، والانهيارُ إسعادَ الذين كانوا يراقبوننا عن كثبٍ وينتظرون أوّل عجزٍ ليشمتوا.

الفصل السادس عشر

بورتريهات

فجأةً، اشتقتُ إلى البحر. لماذا لا يستطيع البحر الواسع جدّاً أن يجد درباً ضيّقاً ليأتي إليّ؟ كيف أمكن حرماني من البحر؟ كيف استطاع البحر، مع كلّ الحبّ الذي أكنّه له، أن يستغني عنّي؟ كيف أمكن تبديد ما هو جوهري، إزالته، تبديده لأتفه الأسباب؟ كيف أماتت الشمس أيضاً قدرة جعلي أنسى كلّ المحيطات؟ بقي الماء الجليدي لدوش الصباح. التشنّجات المتروكة في جوف البطن طيلة النهار. اصطكاك الأسنان. ازرقاق الشفاه. حساء الماء المالح. بقي الخوف. الخوف من كلّ لحظة. الأذن متأهّبة. المغص. الرعب. الخلايا العصبية السائلة في قعر السروال الداخلي. مع ذلك لم يعد هناك ما نخسره. ما عدا. ما عدا المذياع الصغير المطلوب إنقاذه. إنقاذ جوزيه آرتور، غونزاغ سان بريس، ماشا بيرانجيه، جان لويس فولكييه، المتسكّعين المؤنسين للغاية وكلّ الآخرين. كان ذلك المذياع ضرورة حياتية. كان محطّتنا الفضائية. كانت تلك العلبة الصغيرة تضمّ كل أوكسجيننا. يومنا التالي. حصّتنا الأخيرة من الإنسانية.

عدا الخوف، بقي البرد، حتى في الصيف. كبُر الجوع

بالبرد. البرد الثابت بفعل الجوع. بقي الظلام، على الدوام. الحبّ حبيس الجدران. قلّة الحب المدعوك بالجدران. الطفولة التي كانت تبتعد القهقرى. فكرة الجنس. غياب الجنس. هرمونات فروز. التجاعيد الأولى. الخصى الطافحة. الزمن اللازمني. تلك الحياة التي كانت تتقدّم وتغوص دون أن تطلب رأينا. بقيت البراءة دون كلاّبات، دون طلقات، دون مدفع، دون حبلٍ ليشنق المرء نفسه... لم يُتَح لنا أيّ مفرّ وتلك كانت المأساة الحقيقية. لم يترك حتى خيار الموت.

بقيت البراءة التي لا تُجدي في شيء ولا تفيد أحداً.

ذات يوم، مُنِعَت ساعة النزهة. لم تُفتَح الأبواب. وقطعوا النخلات بضربات الفأس. التهموا لبّ النخلات الكبيرة في موعد القصعات لكي نراهم يتلذّذون بغنيمتهم. شاهدنا الحراس، زملاء السجن في الأمس، يجدون لذّة في احتقارنا، والابتسامة تقطر عصيراً من لبّ النخلة. أدركنا الفرق. كان الحرّاس يكتسبون مقاماً. ونحن سعينا إلى كسب شفقتهم. حينما ذكّرناهم بأننا لم نرتكب أيّة جريمة، ردّوا علينا بأن ليس لهم أيّة علاقة بمصيبتنا. كانوا يطبّقون الأوامر، ولو أنّ الأمر أُعطي لهم بقتل أطفالهم، لقتلوا أطفالهم طفلاً تلو طفل، أمراً تلو أمر. كتبنا. طلبنا أقلام رصاص وأوراق رسم بمناسبة العيد الخامس والعشرين للعرش، الأكثر أهمية من سواه. رسمنا ثلاثة بورتريهات لثلاثة أجيال من الأسرة الحاكمة نفسها: محمد الخامس، الأب، والحسن الثاني والابن. ثلاثة بورتريهات بالقلم الفحمي، ممتازة. الارتياب. اشتبهوا في تواطؤٍ خارجي. جعلونا نرسمها مرّة أخرى. فرسمناها

مرّة أخرى - البورتريهات الثلاثة بالقلم الفحمي -، ممتازة كما رسمناها للمرّة الأولى. رُفِع الارتياب. كنّا موهوبين.

كان الردّ الانتقاميّ مباشراً.

شُغِّلَت المولّدة الكهربائية في وضح النهار. كان ذلك إيذاناً بتفتيشٍ على مستوى عال. هرعنا مباشرة لإخفاء كلّ ما تبقّى لنا والذي ما زال يجعلنا نرتجف: الراديو، خاتم الكارتييه، السلسلة الذهبية لوالدي وخاتم زواج أمّي. لا وقت لدفنها أو الأحرى لا وقت لتجفيف البلاطات.

في ثلاث دقائق، كنّا مستعدّين لاستقبالهم.

الفصل السابع عشر

العار

كان ذلك فظيعاً. هذا كلّ شيء. كان العقيد ذو المعطف النازيّ يقود الموكب، يوجّه أوامره مركزياً ويبقى جانباً. هاجمت كلاب الحراسة، وانقضّت على الأبواب. انفتحت الأبواب المصفّحة الأربعة في اللحظة نفسها. تراجعت الكلاب لترانا نخرج على بُعد. كانت الفكرة هي جمعنا في زنزانة واحدة بغية التمكّن من تفتيش كلّ الزنازين الأخرى دون شهود. كنتُ أرتجف. استجمعت البطاريات بين فخذيّ الكثير من الأمل. كلّ الأمل. الأمل وطاقة آخر صوتٍ خفيضٍ كان لا يزال يسمح بأن يرشح القليل من الضوء إلى مأوى المحتضرين خاصّتنا. كنتُ أعرف ذلك.

كنتُ أعرف، وكنتُ أرتجف.

بينما كنّا نعبر الممرّ بعضنا خلف بعض، شَاهَدت الكلابُ كم كنتُ أرتجف. تفتيش الجسم. تحسّست البطاريات ووجدتها بين فخذيّ. شعرتُ بالعار. صودِرَت البطاريات. شعرتُ بالعار. سيكون هناك تحقيق. كانت البطاريات تُستَخدَم في آلةٍ. ما هي؟ شعرتُ بالعار. «اعرفوا الذي تجرأ على تغذية الآلة واقتلوه.»

شعرتُ بالعار. بات التفتيش مشروعاً بفعل خطئي. عند العودة إلى الزنزانة، واسى الآخرون خجلي. لم يؤخَذ الراديو، هذا هو المهمّ، وسنعرف كيف نجد مصدراً آخر للطاقة. بكيتُ خجلاً. مسح الآخرون دموعي. كنتُ منهارة والآخرون يحيطون بي لأخفّف من خجلي. كنّا لا نزال أحياء. صحيح، كنّا لا نزال على قيد الحياة. لم أعد أنهار، كنتُ أتدحرج. في السابق، لم يكن الخجل مقدّراً لي ومع ذلك أنا مَنْ كنتُ أكابده. كان يمتلأ منّي وحدي. لستُ أنا، ليس الآن وفي كلّ الأحوال ليس في هذه السنة. ليس في هذا اليوم.

بسببي، سينطفئ آخر شعاعٍ خارجيٍّ للحياة. أردتُ لو انشقّت الأرض وابتلعتني. والآخرون، الذين كفّوا عن مواساتي. ذلك الإحساس لا يُنسى ولا شيء يُصلحه. لا أحد ولا شيء، حتى الآن، يعزّيني - بعد خمسة وثلاثين عاماً - عن العار الذي أحسستُ به يوم ذاك، عن ذلك الإحساس الفظيع المطبوع في الجسد والروح، الصوت الخفيض حتى قبل فتح الفم، خطوة صغيرة داعية لخطوات خاطئة كلّ الوقت.

مرّة واحدة تكفي، وهذا في سبيل الحياة.

H comme Honte. H comme Hache.

Quel horrible sentiment, Hassan[1]

مع ذلك كان الاجتماع في زنزانة واحدة يوماً للالتقاء. سبعة

---

(1) هنا تأخذ الكاتبة الحرف المشترك H في أوائل كلمات العار honte والفأس hache والحسن Hassan، لعقد مقارنة. أمّا الترجمة فهي: H مثل العار. H مثل الفأس. يا له من إحساسٍ رهيب، الحسن. المترجم

أعوامٍ كانت قد مضت. بالكاد تعرّفنا على بعضنا. جُمِّدَت فرحتنا. كان التفتيش يتواصل منذ ساعات. منذ ساعات طويلة للغاية. خلف باب الزنزانة التي أُدخلنا فيها، لم تتوقّف حركة الذهاب والإياب معظم الليل. مع أنّهم لم يكونوا يفتّشون ڤيرساي. أوقِدتْ نارٌ وسط الباحة لتُحرَق فيه كلّ الرسومات والمخطّطات الأوّلية ومسودات الرسائل والحكايات والألعاب المصنوعة من الورق الممضوغ، والألبسة القديمة البالية.

أُعدّت صفحة بيضاء حول الذكريات البالية والمحاولات الأخيرة لحسن السلوك.

عاد الصباح.

آه، على الأقل كان بوسعنا الاعتماد عليه. عاد الصباح في الوقت المناسب. إخراج القصعات. استعادة القصعات. تنظيف ڤيرساي الصغير. السير دائرياً. الدوران في دورات ثمانٍ لتجنّب التقاء واحدتنا بالأخرى. السكوت. إخفاء الزبد بطرف الأنياب. التذكّر مسبقاً. التذكّر فيما بعد. تذكّر الموت الآن لاختزال الجهد غير المجدي للعيش بأيّ ثمن. قبل غد. قبل النهاية على نارٍ هادئة. التقدّم على الآخرين. الاختيار. أخيراً اتّخاذ القرار والاختيار. العزم على الاختيار. قبل الموت الوشيك. ما زالت هناك بعض المحاولات للإقدام عليها.

اخترنا تغيير اسمنا.

اسمنا هو ما أرادوا إزالته. تغيير الاسم، هو ولادة جديدة تحت نجمٍ آخر. تغيير الاسم، هو أن نُحرّر سرّاً وأن نستطيع أن نبدأ من جديد بداية حسنة. المطالبة بتغيير الاسم، هو قبول

بهزيمته الأكيدة. وهو اعترافٌ بالأقوى. هو تعلّم المهانة. هو تقديم الدليل ضدّه.

أطلِقوا سراحنا تحت اسمٍ آخر.

فكرةٌ رائعة.

قضينا أربعة عشر عاماً في الدفاع عن براءتنا، وفي حرصنا على أن نكون أباة، مهذّبين، شرفاء طوال العام، فخورين ببقائنا على طبعنا، لا قيمة لنا ولكننا على طبعنا، في إعلاء الافتخار، في الظلّ ولكن عالياً وقويّاً، بهذا الاسم، اسمنا، الوحيد. لا مشكلة. نُهديك إيّاه. ليس بيننا هذه الصغائر، لقد أدّيت ما عليك، هنا، أعتقد أننا فهمناك. أخيراً. يمكنك قول ذلك، أخيراً فهمنا. حسنٌ، تأخّرنا في الفهم. لكنّ الأمور بخواتيمها. سوف نتخلّى عن المقطعين اللذين يخنقانك من هذا الاسم. هذا جيّد، أنت الأقوى، لقد ربحتَ. هل هذا سيكفي؟ هل هذا كافٍ ليجعلك ترخي فكّيك عنّا؟

الصمت.

الاقتراح البسيط بالتضحية بالاسم، التعبير البسيط عن مجرّد فكرة التخلّي عن الهويّة هو جهدٌ ضائعٌ عبقري يسبّب ألماً في الإست!

إنّ إعطاء الإست للأقوى يسبّب ألماً شديداً للإست.

حسنٌ، إذا كان الإست سيُعطى، فالأفضل أن يُعطى للأقدر.

ومع ذلك هذا مؤلم.

الصمت.

ما الذي لم نضحِّ به للبقاء على قيد الحياة! بيني وبينك،

الحياة مكلفة للغاية. يكون حاصل إضافة ثمن الحرية إلى ثمن الحياة ذاتها غير إنسانيّ. حاصلٌ لا يُصدّق. هل تستحقّان، وإن كانتا الحرية والحياة، كلفةً كهذه؟

قد ينبغي على المرء أن يعود من موتٍ ومن حياةٍ بلا حرية ليكون موضوعياً في جوابه.

لم يُعدَّل اسمنا.

لا بدّ أنّهم استلذّوا بالنجاح في تحطيم شخصيتنا وتفتيتها. لحسن الحظ، لم تكن أية مرآة تعكس حينذاك سقوطنا. لا شكّ أننا فقدنا لعشرين عاماً خلت لون الشفاه الوردي. ربّما لجأنا إلى كلّ الوسائل المشروعة لبلوغ آجالنا. ربّما كنّا قد جُرِّدنا من كلّ شيء. ببساطة جُرّدنا من أنفسنا.

الفصل الثامن عشر

محاولة انتحار شاقّة

بقي لنا ذلك الهواء في قعر الرئتين.

بقي لنا أن نعطي ذلك الهواء.

بقي لنا ذلك الدم بلتراتٍ كاملة في كلّ وريد.

بقي لنا أن نعطي ذلك الدم.

بقيت لنا الحياة لندافع عن أنفسنا.

بقي لنا أن نعطي حيواتنا، حياةً بحياة، حتى آخر حياة.

أمّي أوّل من مزّقت أوردتها. ساعدها أخي في ذلك. أطلق النداء حينما فقدت الوعي. لم يتمّكن أخي وأمّي من إثارة القلق الذي تمنّياه. هي، الأرجح لأنّ الجميع كانوا يعلمون بأنّها لا تستطيع ترك ابنها لمصيره، وهو، لأنّ تمزيق معصم أمّه جعله يُغمى عليه.

ومن ثمّ كانت تلك الصرخات. صرخات ذلك الصبيّ في الليل البهيم. قبضات ذلك الصبيّ على الباب المصفّح. ضيق كلّ أولئك الصبيان على كلّ تلك الأبواب المصفّحة. ندم أولئك الصبيان على كونهم أرادوا أن يموتوا واحداً واحداً لكي يخرجوا سالمين واحداً واحداً. ومن ثمّ العته في طرف قبضات أولئك

الصبيان. ومن ثمّ تلك الأبواب المغلقة. ومن ثمّ تلك القبضات الدامية. ومن ثمّ دموعهم، دموع الجبناء لقبول التضحية بأمّهم أوّلاً. وتلك الفتوّة الكريهة. وتلك الليلة الفظيعة. وأولئك الحرّاس اللامبالون الناعسون.

ومن ثمّ الضمادتان من حول رسغيها والرقاد في السرير دون حساء.

ومن ثمّ فرحة معرفتنا بأنّ أمّي على قيد الحياة.

ومن ثمّ فريضة الموت.

ومن ثمّ لحظة النيابة.

ومن ثمّ التأكّد من أنّ هناك حاجة إلى الكثير من الدم، هذه المرّة. الكثير الكثير من الدم. كانت هناك حاجة إلى لترين حتى أربعة لترات من الكريّات الحمراء بالمصل للاقتناع بإرادة الحياة. كانت هناك حاجة لمتبرّعٍ أو اثنين عازمين تماماً على إنجاز ذلك لاستمالة الخصم. قد يبدو هذا الأمر متناقضاً، ولكن كان علينا أن نموت لنأمل أن نستمرّ في الحياة.

فشل اثنان. عرضتُ نفسي على الباقين السبعة. لم أعد أتذكّر حججاً رائجة، وأبقيت الافتخار بالنجاح في السباق مطموراً في مكانٍ ما.

بقي أن أختار أسلحتي. كان هناك سلاحان. اختار أخي الآخر، الأبعد منّا، الغطاء الصدِئ لعلبة سردين. وأنا فضّلتُ المقصّ الصغير الثاقب. وبينما كان يعدّ مدفن العظام خاصّته وحيداً في زنزانته كرجلٍ كبير، كان لديّ جمهورٌ ويعمّ الصمت من حولي. بمحاذاة حشيّتي، حبست ثلاثة أزواج من العيون

أنفاسها. لطالما حلمتُ أن يكون لي جمهورٌ لطيف، مسرحٌ كبير، موسيقيون، ورهبة ما قبل صعود المسرح المفرحة جدّاً وترحيبٌ حارٌّ وقوفاً.

«هل سينجح الأمر؟

- سينجح الأمر.

- هيّا.»

على ضوء شمعة، مزّقت المعصم الأيسر. انبجس الدم، أسود ولامعاً. الأمر سهل، سهلٌ للغاية، يجب فقط الكفّ عن التفكير والاستغراق في الضوء. غرزتُ بضربة حدّ المقصّ بزاوية قائمة. فجأةً غدت اليد اليمنى عديمة المهارة. مزّقت. مزّقت بعمق نسيجاً تلو الآخر. خانتني دروس التشريح. واصلتُ القطع حتى الوريد. كانت المادة متينة، أشبه بالكاوتشوك، وزلِقة. لزجة. ذلك الوريد الرفيع الشفّاف، الضعيف المظهر، بدا وكأنّه أنقليسٌ تحت حدّ المقصّ. كان يراهن على البقاء، على الفشل، على مقاومة خياري، على إحباط عهدي، والأسوأ، إحباط الوعد الذي قطعته على نفسي. الكرامة أقوى. كان ينبغي الحفاظ عليها في كلّ حال. سأنال منكِ. وللنيل منها، اضطّررتُ لأن أقطع على نحوٍ مائل. انتهيت إلى النيل من تلك الأفعى الصغيرة. جمع أحدهم الدم في وعاءٍ بلاستيكي. كان الدم يقطر قطرة قطرة، ثمّ انبجس. تنفّست الأزواج الثلاثة من العيون الصعداء. كنتُ أضخّ الدم من معصمي، وأنا أدوّر المقصّ المغروز لضمان فتح الجرح. أفرغني الإناء. انفعل القلب وذهب بجزءٍ من قسوتي. انزلقت أصابعي في الحلقات المعدنية الضيّقة. الشروع في الكلام

هو الأهمّ. أُعطيت لي الفرصة لأمسح عاري. طلبتُ أن يُمسَك بالمقصّ وأن يُدوّر بدلاً منّي في الثقب، ولن يعود عليّ سوى أن أضخّ. صُدِمت واحدة من أخواتي بذلك، وبكت. تبادلنا النظرات. كانت الشمعة تتراقص على إيقاع أنفاسنا. لم تسبل أيّة منهنّ عينيها. شتمت: «في عيد تعميدكِ، كنتُ أكثر الأخوات سعادةً. كان عيداً فخيماً. كانت هناك جبالٌ من الحلويات، أنتِ تعرفين أن حلوياتي المفضّلة هي التي تحوي لوزاً وسكّراً جامداً. كان بابا أيضاً سعيداً. لطالما أحبّ رفقتكِ. هل تتذكّرين حينما كنتِ تغنّين دائرة حول نفسكِ طائرة نفّاثة ؟ كان ذلك يضحكه. ضخّي.» ابتسمت. «كان يقول إنّكِ ستصبحين. . . ضخّي، من فضلكِ.» شعرتُ بطعمٍ غريبٍ في فمي. كان طعم الحديد يغطّي لثّتيّ. لم أكن أشعر أنني على ما يُرام تماماً. «كان ليفتخر بكِ، ضخّي.» تنفّضت. البقاء واعية في خيارها. إنّها تنتحر، لا بدّ أنني كنتُ شاحبة. لم تعد حتى أجفاننا تتوافق في رفيفها. كنتُ مهيّأة لأن أموت. وكانت مهيّأة لأن تراني أموت.

لن يُقدّم لي برهانٌ على الحبّ أجمل من هذا أبد الدهر. تخثّر الدم فجأة وسدّ التجويف. «ضخّي. – ولكنّني أضخّ.»كان الدم يجفّ من حول المعصم أسرع حتّى من أن يُفرَغَ. لا بدّ من تحريك المقصّ. حرّكنا. لا بدّ من تعديل وضعية الجسد. عدّلنا وضعية الجسد. «ضخّي، ضخّي.»كنتُ أضخّ في الفراغ. لم يعد ينزل أيّ شيء أو يكاد. لم يكن هناك ما يكفي من الدم، وأصبح الصباح. أُفرِغ الوعاء الأوّل في المجارير. يجب ملء آخر، سريعاً. أمسكتُ بالمقصّ من جديد، وغرسته وقطعتُ على نحوٍ

أعمق ودائماً بشكلٍ مائل. هذه المرّة، كانت المادة مختلفة. أبديتُ مهارة حازمة. «اقطعي.» قطعت. استسلم المعصم. لم يعد الدم يسيل البتّة. استنتجنا من ذلك تمزّق رباطٍ مفصلي. يجب الانقضاض على مكانٍ آخر. انقضضتُ على المعصم نفسه من جهة الشريان. هناك، لم تعد المسألة مزاحاً. أفرغي الإناء وانقليني إلى مكانٍ آخر. بكت من كانت تساعدني في ملئه وأخبرتني كم كانت تحبّني. «أحبّكِ أيضاً. بقوّة. – وأنا أيضاً، بقوّة. – شكراً. – شكراً.»

حُرّتان. حرّة.

الساعة السابعة صباحاً. استعادة القصعات. كان الدم يسيل في وضح النهار على الدرجات تحت باب زنزانة أخي.

دقّ الحرّاس على الأبواب المصفّحة بضرباتٍ قويّة من أعقاب البنادق.

دينغ دونغ.

لماذا كانوا يدقّون بهذه القوّة في حين كانت المفاتيح معهم؟

الفصل التاسع عشر

محاولة انتحار شاقّة، تتمّة...

كسروا باب زنزانة أخي بمساعدة أعقاب البنادق وأخيراً بدورة مفتاحٍ ثلاثية. ساروا وسط دمنا دون أن ينجحوا في تجاوز نسغ حياتنا. بذلوا كلّ مجهودهم. صرخوا. صرخوا فيه وهم واقفين فوقه. تصايحوا من فوقه، مشمئزين. لو مات، سيموتون، المغفّلون. كانوا ينتقمون لذلك. لم يكن بوسعه أن يموت إلاّ بناءً على أمر. دبّت الفوضى. تخبّطت الجِزَم العسكرية في المادة اللزجة وصرّت وصرفت فيها، وهي تخوضها. كانوا يخرجون مشمئزّين من بركة دم الخنازير. ركضوا، ذهبوا وعادوا، قاموا بمحاولات عبثية، وأبدوا ردود فعلٍ سيّئة، كانوا على حافة حياةٍ مرعبة. حرّاسٌ أغبياء لهذه الحياة البليدة التي ما عادت تساوي مسماراً.

ومع ذلك.

لم تعد الزنازين المحيطة مع كلّ ما تحتوي من حبس الأنفاس سوى آذان صاغية. اذهبوا، هذه المرّة، كانت العملية ناجحة. كانوا سيستسلمون. لم يعد لديهم من خيار. لقد جرى القيام بأقصى ما يمكن. لا يهمّ مَن سيستسلم. لا يهمّ أيّ كائنٍ

حيّ سيموت. أيّ شيءٍ كان. ظهر الجلاد بلا رقبة. في نهاية المطاف، كان طبيب القصر قد اضطرّ للقيام بكلّ دراساته. «ضعوه في الباحة إلى حين أن يستعيد وعيه.» رقيق. دنيء. تبّاً لمضاعفة كريات دمه. تبّاً للأوكسجين.

أخرجوه على حشيّته إلى الضوء القويّ. لقد تحمّلوا إخراجه إلى الباحة وعلى رسغيه ممسحتان.

من تحت الأبواب المصفّحة، كنّا نشمّ رائحة المصيبة. الإخفاق. الإخفاقات. عثروا على الراديو وصادروه. حسبه أن يستفيق. استفق، لا قيمةَ ولا وزن لهم. انهض، يا ابن بروتوس. انهض! كان يبدو نائماً كميّت. ما العتب على الوحوش التي كُبِّرَت في الظلّ، كُبِّرَ، كُبِّرت، وسرعان ما أصبحت فطوراً سامّة، غنغرينة، طُفيليّات، سرفات الذباب، قنابل نووية. حتى وإن كان لم يعد ينبغي أن يبقى منهم إلاّ واحد من أصل تسعة. كان واحدٌ يكفي. قد يكفي واحدٌ. واحدٌ سيكفي. الحرية أو الموت. الحرية قبل الموت. الحرية لأنّ الموت. أيّاً كان الوحيد والفريد الذي سنقدّمه، وندعه بين ذراعي الحرّية، سيكون وحشاً هائجاً.

وحشٌ واحدٌ سيكفي.

فشلٌ ثانٍ جارح. أعترف. أقرّ. كان الجنون يُغذّى عن معرفة. سيكون الحقد الطفل المدلّل للغضب الشديد. الخلاص هو سليل الحياة بعد كلّ حساب. الثمن؟ لا يهمّ ما هو.

أن نكون أحراراً ولا يهمّ أيّ ثمنٍ ندفعه، أقسمنا لبعضنا البعض على ذلك. أقسمتُ لأنفسنا على ذلك. بطريقة غير

مباشرة عبر المجارير التي لا صدى لها، تبادلنا القبلات بقوّة، بقوّة، بقوّة، مشدودين إلى الجدران.

نحو منتصف النهار، ودائماً من خلال النظرة الغارقة من أسفل الأبواب المصفّحة، بدا أنّه استعاد وعيه.

كانت أجفانه تتفتّح. كان الفشل يضيّق الخناق.

كان ينبغي التفكير سريعاً في الخطوة التالية.

ابتسم الحرّاس. إذا كان حيّاً، فهذا يعني أنّهم أيضاً لا يزالون على قيد الحياة. كانت حياتهم ترتبط بحياتنا. فرؤيتهم له وهو يفتح عينيه كانت تضمن لهم بأنّهم سيرون أطفالهم مرّة أخرى. كانوا ظرفاء، أو بكلّ بساطة سعداء بوقوفهم أمام المشهد.

حتى وإن لم يكن ذلك صحيحاً، كنّا بحاجة لأن نصدّقه.

حتى وإن لم يكن ذلك صحيحاً، كنّا نصدّقه.

قدّموا له ما يشربه. وغيّروا الممسحتين من حول معصميه.

عاد الضحك، عند رؤية أحدهم يحلق له الشعرات الأربع المتدلية من ذقنه.

بعد إنعاشه وتجعيد شعره، حرصوا على إعادته إلى الزنزانة.

وحيداً.

وحيداً مع أعوامه الخمسة والعشرين.

حالما أُعيد إقفال الأبواب، عبر طرفا الأنبوب فوهتي المجرور. عُقِدَ اجتماع التعليمات الأكثر أهميةً.

«أوّل مَنْ سيموت سيُدفَن في الباحة.

– تنفّس.

– سمعتُ الحارسين يقولان ذلك لبعضهما بثقة مطلقة.»

تنفّس نفحة هواء، يا ابن بروتوس.

«لن نخرج من هنا أبداً أحياء. ينتظرون أن نموت ميتة طبيعية. لكلٍّ منّا مكانه في الباحة.»

عبر الكشفُ كالساطور جميع الزنازين وارتدّ إليه.

«ماذا تروي! استرح، أنت متعَب. فقدتَ الكثير من الدم.

لم تستطع سماع شيءٍ كهذا.

- أنا متعبٌ جدّاً، ولكنّكم فهمتموني، أكرّر، لقد قال بأنّ لكلٍّ منا، وسيكون له، مكانه في الباحة. أموات أو أحياء، لن نخرج من هنا أبداً.»

لم تستعد كلّ كُرياتك، لقد أسأت الفهم، لستَ قادراً على أن تسمع أو أن تكون قد سمعت. في الواقع، ما هذه الخدعة المنحطّة؟ هذا أمرٌ واهٍ. انتظرنا خمسة عشر عاماً لنسمع الجنون.

ولكنّهم مغفّلين أم ماذا! لماذا لم يعدمونا في اليوم الأوّل؟

لأنّ.

لفهم ذلك، لا بدّ أنّ طبقاً من ثمار البحر قد قُدِّم في آرومانش، أو في بودوك، أو في لاروشيل. في عزّ الصيف، رائحة يود قوية، هواء خفيف منعش، وهو المطلوب بالضبط، أناسٌ هادئون، أسوارٌ معلّلة بأغاني فرانكوفولي، الجلوس على رصيف مطعم على الشاطئ. قريدس مايو فاخر، زجاجة بويلي-فوميه معطّرةً حسب الطلب. يقدّم البيت الدزينة الأخرى من القريدس للحثّ على الصبر. يصل طبق ثمار البحر. تبقى الشمس في الحالة نفسها. تتوالى الحفلات الموسيقية. تذوّق

الحيوانات الصغيرة بهدوء، ونشوة ولذّة. تلزمنا قارورةٌ أخرى من النبيذ وبعض الشمس، وبعض الموسيقى، ووجوه حسنة محيطة من كلّ الجهات.

إلى المائدة، أحدهم يحبّك؟

ثمّ ؟

لا بدّ على الأقلّ من ثلاث ساعات للإتيان على كلّ المشابك، على اللحم الطريّ المطمور وعلى قعر كلّ قوقعة.

ماذا تروين لي؟

لا شيء.

هناك آخرون يأخذون وقتهم. الذين قضوا خمسة عشر عاماً في تذوّق الحيوانات الصغيرة.

ماذا تروين لي؟

لا شيء.

الفصل العشرون

الإضراب الثاني عن الطعام

جاؤوا ليكسروا لنا الحوض، المعنويات، القوائم، المآبض، الدماغ. كان العقل، ملتوياً على شكل حرف X، يذوي. لا أحد من بيننا وجد بصيص أمل. حتى أمّي التي كانت تُقسم منذ خمسة عشر عاماً إننا سنخرج سالمين، يَئِسَت. كثيرٌ، هذا كثير. وما كان كثيراً بالنسبة لنا لم يكن على ما يبدو كافياً بالنسبة لهم. كان لا بدّ من التصرّف قبل النهاية الوشيكة. نقلت أنابيب الري عبر أقنية المجارير أنفاساً قصيرة، عبثية. صمتٌ مليءٌ بالأنفاس. الإنهاك، القلق. المأزق. عدم فهم ما لا يُفهَم. الظهر مسند إلى الجدار، قمّة الكبرياء. إنّه حيّ.

كان الانقضاض على موهبتنا يستوجب أن ننقضّ على موهبتهم.

كانت المقارنة مع مقاومتنا تستوجب أن نختبر مقاومتهم.

بعد تصويتٍ طارئ، إقرارٌ بالإجماع لإضرابٍ مفتوحٍ عن الطعام. كان من النادر بل والنادر جدّاً أن نُستَشار، وأن يُؤخَذَ رأينا بالحسبان. غالباً ما كان ثلاثة يقرّرون نيابةً عن تسعة.

والآخرون يتبعون، تحت تأثير أو سلطة الحكماء الثلاثة. في كلّ الأحوال، تحت تأثير أو سلطة الثلاثة الذين كانوا يعتقدون جازمين بأنّهم الأكثر حكمة وتبصّراً وذكاءً وشرعية في اتّخاذ القرارات بالنيابة عن جميع الآخرين. ظلّ النظام إقطاعياً في كلّ مكان. ونحن أطفالاً، كنّا مستقلّين. محميّين حماية فائقة. ونحن بالغين، بقينا أطفالاً، مَدينين. أو أشخاصاً معزّزين مطلوب حمايتهم. ولكن، هذه المرّة، كان إضرابٌ مفتوح يتطلّب الالتزام من كلٍّ واحدٍ منّا. قد لا ينال تمرّدنا من ذلك سوى المزيد من الأعباء. ومن البديهي أنه لا يمكن لثلاثة أن يجوعوا بدل جميع الآخرين. وطبعاً كان يجب إيقاف النزف. حتى خنزير لا يقضي خمسة عشر عاماً في إفراغ دمه. ملزماً. كان الأطفال قد أصبحوا رجالاً. وكان الرجال في طور التحوّل إلى وحوش. كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً. ماذا فعلتُ به؟ ماذا فعلت بي هذه الأعوام الثلاثة والعشرون؟

منذ اليوم التالي، كان الإعلان رسمياً. الكف عن جلب ما نأكله، فقد قررنا أن ندع أنفسنا نموت جوعاً.

كان ميتران ينهي ولايته الأولى من سبع سنوات. شرعنا بالإضراب عن الطعام بإصرارٍ وتصميم. وفي ذكرى الإضراب الأوّل، لم يكن من الصعب أن يستقرّ النظام. خضع البطن للدماغ. والدماغ علبة للتدجين. شرب الماء وعدم تناول الطعام. شرب الماء والتفكير في عدم تناول الطعام. شرب الماء وعدم التفكير أبداً في تناول الطعام. الأيام الثلاثة الأولى هي الأصعب. مرّت الأيام الثلاثة الأولى. تكدّس الغذاء في الزنازين. كانوا

يسلّموننا يومياً خضراوات طازجة موسمية كنّا قد نسينا وجودها. قرنبيط. آه، إنّه قرنبيط.

«وأيّ طعمٍ لهذا؟ سأل أخي الصغير.

– سوف تتذوّقه ذات يوم، هذا وعد.»

لحم فخذ الخروف الورديّ اللون. زبدة. زيتٌ، وسكّرٌ بكمياتٍ وفيرة. كنتُ جائعة. انقضت عشرة أيام، والجوع ينهش أحشاءنا. انقضى عشرون يوماً، والجوع ينهش أحشاءنا. كانت المؤن تفسد وتتفسّخ تحت بعضها. كونوا عقلاء. نحن عقلاء، ولذلك لا نأكل. والأسوأ، أننا لم نسرق شيئاً. كان الدماغ يدير بؤس الجسد. وما هو عقليّ كان أقوى من الموت. كانوا يكدّسون المؤن وكنّا نتركها تفسد عند أقدامنا.

كانوا يزوروننا ثلاث مرّات يومياً ليتأكّدوا من أننا لم نلمس شيئاً مما يقدّمونه لنا. لم نكن نلمس شيئاً. كانت اليد الحديدية ملتزمة. متكدّسين في الزنزانة، اتّخذت الحشيّة قالب شكل الجسم، وتسامت الروح. بعد عشرين يوماً من الإضراب، كنّا لا نزال نستطيع السير لبضع دقائق. الليالي هادئة ووديعة. أحاط إحساسٌ بالخفّة بكلٍّ منّا. ظلّت أختي تروي لنا حكايتها. ثمّة شعورٌ بفخرٍ ما حينما يسيطر المرء على جسده، ويُظهر إرادة صلبة. في هذا القرار بالامتناع عن التغذّي، كانت ثمّة إرادة حازمة في العيش بأيّ ثمن.

مضى شهر. ثلاثون يوماً من الإضراب عن الطعام. كان الذهن ينشغل ليل نهار بطهي أطباقٍ عامرة ودسمة. وكلٌّ أدلى

بوصفة إعداد طبقه. بعد انقضاء خمسة وثلاثين يوماً، أصبحت الوصفات مأتمية. انقضّ الجوع على العقل. بات من الممكن تناول جرذانٍ نيّئة مليئة بالبراغيث. في اليوم الأربعين، بات من المعقول أن يلتهم الجار جاره.

في اليوم الثالث والأربعين، دخلوا ليخبرونا بأنّه قد بات من المسموح لنا من الآن فصاعداً أن نقضي فترة ما بعد الظهيرة معاً لمرتّين في الأسبوع.

استسلمنا لأوّل عرض.

كانت القضية أن نجعلهم يخضعون لمطلبنا لا أن ندع أنفسنا نموت جوعاً.

أنهينا إضرابنا عن الطعام في اليوم الثالث والأربعين. كنّا في غاية الهزال والإنهاك. يشبه بعضنا جثث الموتى. لم يكن من المتوقّع أن يستمرّ الإضراب عن الطعام هذه المدّة الطويلة جدّاً. لم يكن أيٌّ منّا قد نسي مكانه المخصّص في الباحة. كان علينا أن نستعيد قوّتنا بأسرع ما يمكن وأن نجرّب الفرصة الأخيرة.

الهروب.

كان الوقت قد حان لكي نهرب.

أتاح لنا واقع اجتماعنا معاً لفترتي ما بعد الظهيرة أسبوعياً أن نعدّ بدقّة خطط الهروب. الفرصة الأخيرة. إمّا أن يكون هروباً ناجحاً أو موتاً مشرّفاً. وأخيراً كنّا على استعدادٍ لأن نضحّي

بثمانية منّا لكي يتمكّن الأخير من أن يفضحك. كان يجب أن يعرف العالم. كان يجب أن يعلم العالم ما أنتَ قادرٌ عليه. كان يجب أن يكتشف الكوكب أنّك قدّيسٌ لوطيّ.

الفصل الحادي والعشرون

تحضيرات الهروب

عادت الابتسامة. كنوعٍ من غبطة اللقاءات. من سعار كوننا لا نزال وسط السباق في الحياة. كنّا نجتمع لأربع ساعات في الأسبوع، الأمر الذي أتاح لنا إنضاج إستراتيجية هذه المعركة الأخيرة. وهذه المرّة، كانت المعركة الصحيحة. لا سيما وأنّه المخرج الوحيد الممكن قبل الراحة الأبدية. سنهرب. أمواتاً أو أحياء، سنخرج من هناك. لم نكن نبالي بكوننا مواليد أموات، آن أوان الخروج إلى الهواء الطلق. ستكون المقبرة، في الباحة، لهم. كانت الأرواح بالأساس في الخارج، وكانت الأجساد على علاّتها تكدّ من أجل ذلك. كان علينا فقط أن نجتمع وأن نعيد توصيل الخلايا العصبية لإيجاد الوسيلة لكي نكون فعلاً في الخارج. كانت لدينا عدّة خطط، غير سيّئة، ولكنّها أصبحت قديمة. أثارت محاولات الانتحار ومن ثمّ الإضراب عن الطعام يقظة الحرّاس. حينما يغدو السجين مضغوطاً في آخر معاقله، يسعى إلى تسلّق الجدران أو العبور من تحت الأسوار. بكلّ منطق، ينتصب سورٌ آخر حول سور المعسكر. القوّة تتعزّز. سمعنا ضجة الأعمال وقطرات العرق تسيل على الجباه المتعبة.

سمعنا وزن الحجر يوضع على حجر، العلوّ الذي رفعناه إليه، والقوّة التي أخذها منّا، والأوكسجين الذي سرقه منّا، والسماء التي غطّاها خلف السماء المغطّاة. إنّ سياجاً آخر حول السياج يستلزم الكثير من المَراقِب لحمايته. بات النفق مشكوكاً فيه. ليس علينا أن نحفر عميقاً فحسب وإنّما أيضاً لمسافة بعيدة. لا بدّ أن تكون الحسابات دقيقة. دقيقة جدّاً. وماذا لو فاجأناهم؟ لو حفرنا بسرعة كبيرة بحيث نخرج قبل أن يبنوا السور المقبل، قبل الحماية المضاعفة؟

كانت الحاجة إلى أن نعيش استثنائية.

تقرّر المكان والعمق والمسافة ووسائل حفر ذلك النفق في الأسبوع.

أخيراً، كنّا، نحن التسعة، حلّ المشكلة.

تمّ الأمر، كنّا على قيد الحياة. كنّا نتصرّف. سوف نكفّ عن التوسّل والدعاء والانتظار والرجاء من الآخرين مهما كان الأمر. كنّا نفعل. كنّا موجودين. أخذنا حياتنا بين قَبَضَاتنا. خاطرنا بها. جازفنا بها. ربّما لأننا كنّا ندافع عن حياتنا لأوّل مرّة. ربّما لأننا كنّا نتهيّأ لكي نقدّم لها للمرّة الأولى الدليل على حبّنا لها، هذه الحياة الرديئة.

كان البيت السجن قد بُني لحوالي ستين سنتمتراً فوق أرضية الأبقار. بعد ذلك كان يجب حساب عمق الأساسات للمرور من تحتها، لأنّه من المستحيل الوصول إلى نهاية الإسمنت المسلّح بالملعقة، إلاّ بقضاء عشرة أعوام. وما عادت لدينا عشرة أعوام.

ثمّ كان علينا أن نجد طريقة للتخلّص من الحجارة والأتربة المستخرجة. وأن نكتشف أوّلاً بأوّل عند أي نقطة بمكن أن نتعرّض لخطر نقص الأوكسجين. وتخمين مدّة إعادة إغلاق النفق يومياً، وردم الحفرة يومياً بغية تجنّب الصدى الناجم عن الفراغ تحت البلاط، تحت جِزَم الحرّاس، خلال حملات التفتيش.

لإعطاء الفرصّة لكلّ واحدٍ في الفرار، سيكون علينا أن نفتح معابر بين كلّ الزنازين.

كانت المشكلة الكبرى هي العثور على مكانٍ لإخفاء الأتربة والحجارة المستخرجة من النفق. ولأجل ذلك، ستلعب الصدفة لصالحنا. خُذِل أخي. فقد فتح بمسمارٍ ثقباً في اللوح المتموّج لنافذة مسدودة. أتاحت له تلك الفتحة أن يقضي النهار بأكمله وهو يرنو من خلاله إلى الخارج. كان مشدوهاً أمام شاحنة مرسيدس، استطاع أن يعيد صنعها بإتقان من ورقٍ مجبول بالماء. من زاوية نظره، استطاع أن يصف لنا وضع المخيّمات ومرابض الرشاشات في الأرض، وإجازات ناظر السجن لعطلة واحدة في كلّ أسبوعين.

ذات يومٍ حينما نسي إعادة إغلاق الثقب الضيّق، رشح شعاعٌ رفيعٌ من الشمس. وقد سدّوا مباشرةً نافذة وباب الحُجرة المتاخمة للزنزانة. حرمان أخي من شروده - الذي كان يستغرق فيه طوال النهار مثبّتاً نظره على الخارج - وفّر الحل لمشكلتنا. سوف تتلقّى تلك الحجرة المسدودة كلّ الأتربة والحجارة الفائضة.

وسيكون علينا الفرار في يوم جمعة حيث يكون الناظر في إجازة.

كانت الضربات الأولى للملاعق قد وُجِّهَت في المساء، حالما أُعيد إغلاق الأبواب. لن تحتاج الزنزانتان الواقعتان في نهاية المبني L إلاّ لفتح معبرٍ واحدٍ فيهما. أما الزنزانتان في الوسط فستحتاجان إلى معبرين. كان العمل سهلاً في الاتّجاه الذي لم تكن للجدران الفاصلة فيها أساسات. عدا جدارٍ فاصلٍ واحد. جدار زنزانة أمّي. حاولنا الحفر في الجدار وأعاقت قناة مياه مرور أمّي عند مستوى الوركين. لن تتمكّن والدتي من الفرار. بالمقابل كان أخي، الأرفع عوداً، يحتفظ بحظوظه.

كان فتحُ حُفَرٍ سهلاً بالمقارنة مع صعوبة إعادة إغلاق الحُفَر دون ترك أثر. أعطى بعض سواد الدخان الممزوج بالتراب لون الإسمنت، واستُخدِم بعض الجصّ المكحوت من الجدار والمخفّف بعد ذلك بالطحين والماء في الحصول على الدهان الأبيض. واستُخدِمَت جمراتٌ في التجفيف.

كان التنظيم والتوقيت والصرامة والدقّة في المواعيد كلّها أموراً ضرورية لنجاح هذا المشروع الهائل. كلّ ليلة، نحو الساعة الرابعة صباحاً، كان كورنيليوس يعلن إيقاف الأعمال. كورنيليوس كان حماراً ينهق خلف السور في الرابعة تماماً أيّاً كان الفصل. لم يكن تبديل الحراسات كلّ ساعتين كافياً لمعرفة الوقت. وإلاّ كان يجب تعيين أحدنا ليكرّس كلّ وقته لتلك المهمّة. لم يكن كورنيليوس يخطئ في التوقيت. حالما يصدر إعلانه، كنّا نسدّ الحفر والمعابر. كان يجب إعادة الإغلاق، والتمويه وتجفيف الجدران، وسدّ البلاط وتجفيف فواصلها، والتنظيف والاغتسال وإخفاء كل آثار التراب الأمغر، وآثار التعب

والابتهاج. يُمكن تلمّس الحالة المعنوية لسجينٍ بسهولة. خلال التفتيش الصباحي، كنّا نُظهر أنفسنا كالحملان الوديعة اليائسة المستسلمة، المستسلمة اليائسة.

ما إن بات المعبر بين الزنازين سالكاً وملبّياً لوظيفته، انكببنا على النفق بحصر المعنى.

كانت ثماني بلاطات طولها عشرون سنتمتراً وعرضها عشرون تكفي لمرور جسم شخصٍ بالغ. الطبقة الأولى من التراب الأسود. الطبقة الثانية من التراب الأحمر. حجارة الأساس. حينما كنّا نصادف حجراً كبيراً يعصى على الانتزاع أو التمرير إلى زنزانة أمّي، كنا نحفر جانبياً لإخفائه. كلّما كانت الأشغال تتقدّم، كنّا نجد الحلول لكل صعوبة تصادفنا. خاطت أمي مخدّات بأشكال مناسبة للتعبئة قبل الإغلاق. مخدّات مثلّثة للزوايا ومستطيلة للقاع ومربّعة للحصول على سطحٍ مستوٍ. وبالتوازي مع ذلك، كان الطبخ يتمّ من دون زيت، لنتمكّن من تغذية الشموع، واحتفظنا ببعض القهوة للتحمّل، وببعض البيض الفاسد من أجل البروتينات، وببعض التوابل لتضليل حاسّة شمّ الكلاب. كان لا بدّ من التفكير في كلّ شيء بدقّة. كنا أشبه بذلك الجيش من الجرذان الفائق التنظيم. كنّا نحفر بالدور. حينما يحفر أحدنا، يراقب آخر أقلّ ضجيج للمفاتيح، يملأ آخرُ المخدّات بالتراب، ويُعيد آخرُ خياطة المخدّات، ويمرّر آخرُ الأتربة والحجارة الفائضة إلى زنزانة أمي ويخفيها آخر في الحجرة المتروكة لهذا الغرض، ويُعدّ آخرُ الإسمنت والدهان الزائفين، ويوقد آخرُ الجمرات، ويُعلن كورنيليوس نهاية الأشغال. من الساعة الرابعة وحتى

السادسة، كانت مجموعة كل زنزانة تُعيد الإغلاق وتردم وتموّه وتُجفّف وتُنظّف وتغسل وتمسّد وتُظهر نفسها كالحمل الوديع اليائس والمستسلم، ويُسحب الغطاء حتى الخطم.

وعلى سبيل الاستبشار، كنّا نضع صليباً مصنوعاً يدوياً وقطعتي خشب قبل إغلاق كلّ نفق على الطبقة الأخيرة من التراب تماماً قبل وضع البلاط. في ذهننا، لم تكن للصليب صلة بيسوع ولا بأيّ رمزٍ دينيٍّ آخر. كان الصليب لمريم، مريم العذراء، وفقط مريم العذراء. كانت مهمّة مريم حمايتنا، حماية ذلك النفق. كان لمريم الحقّ علينا في صلوات مخلصة وفي كلّ امتنانا. استجابت مريم لدعواتنا بحمايتها للنفق لثلاثة أشهر. بدأنا نؤمن بذلك، بمعجزة مريم العذراء. منذ بضعة أسابيع، كان الحرّاس يطوفون من حول بلاطات النفق، مبعَدين عنها بقوّة خفية. غدت لورد[1]، مقصداً للسيّاح.

وسرعان ما منحنا ضمان المرور عبر حملات التفتيش الصباحية الجرأة على العمل في النهار أيضاً. ظلّت رموز لهجة القنادس عصية على الحلّ. عند أدنى خطر، كانت صرخة قندسٍ تُعطي الإنذار. وحده النفق كان مفتوحاً في النهار. وحدهنّ «البنات» كنّ يحفرن. كانت الزنازين الثلاث الأخرى تراقب. بدا أنّ العمل في السور الثاني كان يتقدّم، لأنّ صوت العمال كان يبلغنا عالياً. ولأنّ منغصات الحيئة لم تعد تزعجنا، لم نفلت من

---

(1) تقع في سلسلة بيرينيه العليا، وقد غدت مركزاً هامّاً للحجّ خاصّ بالعذراء حينما ادّعت شابّة من المنطقة، برناديت سوبيروس، عام 1858 بأنّها قد حُبيت برؤى مريم العذراء. المترجم

تفتيشٍ مباغتٍ خلال فترة ما بعد الظهيرة. كان دوري في العمل داخل النفق. وكان لوحُ حديد يغطّي الفتحة. استُخدِم ذلك اللوح الحديد مع بعض الخضروات الجافّة المفروشة تحته فخّاً. قلّ الأوكسجين. انطفأت الشمعة. جعلتني خطواتٌ وأصواتٌ خفيضة أغمض عينيّ. ابتعدت الخطوات والأصوات. انزلق اللوح الحديد جانباً لاسترداد الهواء. لقد نجونا بأعجوبة. النصر. شكراً يا مريم. شكراً.

ضاعفنا من الاحتراس والحذر. كان من الضروري أن نحفر بعمق مترين ونصف قبل الشروع في حفر النفق أفقياً.

إن صحّت حساباتنا، فإنّ العرض الفاصل بين السورين سوف يتبيّن لنا عبر أساسٍ ثانٍ. خمسة أمتار. ثلاثة أشهرٍ من العمل الحثيث. بعد تجاوز الأساس الأخير، سيكون علينا أن نصعد لمترين ونصف نحو السطح. بعد ذلك، ستكون النفحة الأولى من الهواء، الحرية، حقلٌ ينبغي عبوره زحفاً، تحت طلقات الرشاشات أو التغطية الممنوحة من مريم. بين الحقل المطلوب عبوره ومهمّتنا في استنفار العالم، ظلّ الغموض كاملاً. لم نكن نعرف أين كنّا. كان هدفنا الوصول إلى العاصمة. وما إن نصبح في العاصمة، نغزو السفارات السويدية أو الفرنسية أو الأمريكية لنطلب فيها اللجوء السياسي.

حينذاك، كان علينا أن نحفر ونحفر ونحفر بسرعة. بسرعة وبشكلٍ جيّد. بسرعة، ونحن نصلّي لمريم ونشكر. . أن نحفر بسرعة قبل أن نرى النفق وهو ينهار فوق أحدنا. بسرعة، قبل النهاية المبرمجة.

قدّمنا يوم الهروب.

أنجزوا السور الثاني وتهيأوا لبناء الصفّ الثاني من المَراقِب. تقدّموا علينا. سمعناهم عبر الجدران. سبق الرّفش الملعقة.

فوجئنا واضطررنا لمضاعفة الجهود. والمزيد من الجهود، كان يعني التعرّض للمزيد من المخاطر. تعاقبت الفرق ليلاً ونهاراً. ثلاثة أيام للوصول إلى الأساس الثاني، وتجاوزه والصعود لمترين ونصف نحو السطح. كانت أمامنا ثلاثة أيام لنحدّد مَنْ منا سيفرّ. اتّخِذَت القرارات بسرعة ودون مزاج.

سوف يفرّ الأقوى جسديّاً من بيننا، تحت خطر أن يُثقَب جلدهم حالما يخرج رأسهم من الحفرة. وسوف يبقى الآخرون لإعادة إغلاق المنافذ وسيُتيحوبون بذلك أقصى وقتٍ ممكنٍ للفارّين. والبعض، الذين اشتدّ بهم المرض، سوف يلهون العدوّ. وعلى الجميع أن يكونوا مستعدين للإعدام دون محاكمة.

صباح يوم الهجوم، عند فتح الأبواب، سيكون علينا اختلاق ما لا يُتصوّر لكي نؤخّر أكثر ما يمكن الدخول إلى زنزانة أخي الذي لن يتمكّن بالطبع، لكونه محبوساً بمفرده، أن يسدّ الحفرة من ورائه. كسب ساعة من الوقت على الأقلّ علاوة على المُدَد المعتادة، تلك كانت كلمة السرّ.

منذ متى كان الوقتُ يتمدّد؟

اخرس، أيّها اللوطيّ.

استُبعِدَت أمّي من السباق بسبب استحالة تمرير وركيها في النفق. كُلِّفَت بسدّ المعبر بعد مغادرة أخي وكسب الوقت. وقد اختير أخي الصغير بالإجماع ليكون في عداد المغامرة. وهو في

السابعة عشرة، كان لا يزال يعتقد بأنّه بوسع المرء أن يمرّ منتصباً من تحت بطنِ بقرة. كانت أختي المصابة بالصرع غير قادرة، جسدياً، على أن تخطو خطوة إلى الخارج. هي لن تفرّ. وكذلك بالنسبة للأختين في الشقاء. بقي صبيّان وثلاث بنات. سنكون خمسة مغادرين. ستكون مسؤولية الخمسة إنقاذ الأربعة الباقين. تسعة للسبب نفسه. قبل المجازفة بعبور الحقل زحفاً على البطون، سوف ينبغي انتظار إطفاء المولّدة الكهربائية. الظلام الكليّ.

وبعد ذلك؟

بعد ذلك، سيكون فن تدبير الأمور. الاكتشاف. الارتجال المطلق. سفارةٌ، حتماً. والإذاعات الأجنبية المستنفَرة.

وبعد ذلك؟

انتكِح بدورك، أيّها القدّيس اللوطيّ.

تُسيئين الكلام.

أنت السوء.

لقد كبرتِ.

أجل، لقد كبرت، يا صديقي العزيز، كبرت. أزيل بيت طفولتي الكبير. ذكرياتٌ قليلة مبعثرة تنحصر بملزمةٍ في ذاكرتي أحياناً ثمّ تسقط في الفراغ.

كانت طفولتي حياة مختلفة.

الفصل الثاني والعشرون

يوم الهجوم

طُلي الوجه بسواد الدخان، وارتُديَت ألبسة خيطَت من أغطية الفراش بزخارف ضخمة، وانتُعِلَت مشّايات مصنوعة يدوياً من نعل مطّاطيٍّ مقطوعٍ من كاوتشوك إطارٍ داخليّ، سلسلة والدي الذهبية وقد صُقِلَت لإزالة الاسم عنها للتمويل، ومسدّسٌ خشبيٌّ مطليٌّ بالأسود للدفاع عن النفس، وها نحن جاهزون.

الجمعة مساءً.

كان الكابتن ذو النظرة التمساحية قد غادر في عطلة نهاية الأسبوع.

كان ذلك يوم الهجوم.

كان يوم الرحيل الكبير.

حفرنا عموديّاً لأكثر من مترين. وارتُجِلَ سلّمٌ في الجدار. حالما وزِّعَت قصعة المساء، انكببنا بأظافرنا على السنتمترات الأخيرة.

كان مشهداً تمثيلياً. حينما كان أحدنا يحفر، كان ثلاثة في النفق لتمرير التراب من واحدٍ إلى آخر حتى إخراجه وإخفائه في زنزانة أمّي.

كانت أمّي تخزّن التراب وتصلّي. عملت أمّي طوال ساعاتٍ كاملة مثل نملةٍ ملكة. صلّت لمريم بصوتٍ عالٍ. عبر الفتحة، تمكّنتُ من رؤية نصف وجهها وتقبيل يديها. عبر الفتحة، وبين نقلتي تراب، كان صوتها، صوت أمّنا يدور في مجالٍ ضيّق. كانت تصلّي وتتضرّع إلى مريم لإنقاذ أولادها والجنيتين المحيطتين بهم. كانت كلّ دقيقة تمضي تُقرّبنا من النهاية أو من نهضةٍ. من نهضةٍ أو من النهاية.

صلّت أمّي لمريم لتختار لنا، هذه المرّة، الورقة المناسبة.

كانت جذور لبلابٍ تعيق الخروج عموديّاً. سيكون علينا الخروج على نحوٍ مائل. كان التوتّر العصبي يؤخّرنا. ابتلعنا بعض صفار البيض الفاسد مع ملعقة قهوة سادة لزيادة الأدرينالين. اخترقت يدٌ الطبقة الأخيرة من التراب. خاضت أصابعٌ في هواء الحرية. قاومت جذور اللبلاب استخلاص الجسم من النفق. كانت المولّدة الكهربائية لا تزال تعمل. كنّا أربعة في النفق نرمي التراب من ورائنا. تسارعت دقّات قلوبنا فوضويّاً. كانت الدقّات ترتفع إلى الأصداغ وتتطابق. كنّا أحياء ما دمنا لم نكن موتى. كان علينا الالتفاف حول جذور اللبلاب. التففنا حول اللبلاب. كنّا جاهزين. اختير أخي الصغير لينطلق أوّلاً ككشّاف. نفحة هواء، كان ذلك أفضل من لا شيء. خرج زاحفاً وعاد ليصف لنا وضع الحراسات ويؤكّد لنا مساحة الحقل. كان قطٌّ قد أماته خوفاً. «إنّه قط، سنوّريّ منزلي. في الواقع، سترى، حينما نصبح أحراراً، إنّه رفيقٌ لطيفٌ وودود. القطط، يوجد منها الكثير من الأنواع والأجناس. القط ليس شريراً. لا بدّ أنّك قد أرعبته. . .»

عُدنا إلى الزنزانة لنودّع بعضنا بعضاً. وداع ماما والذين بقوا في السجن. والوداع بين الذين كانوا يغادرون. إذا ما وقع جريحٌ أو قتيل، اتُّفِقَ على أن يُترَك الجريحُ أو القتيل. الصلاة الأخيرة لمريم. حانت الساعة لنفترق. ربّما لن يرى بعضنا بعضاً مرّة أخرى إلى الأبد. التوصيات والنصائح الأخيرة. وهنا، طَق! لم يكن بوسعنا أن نغادر خمسةً. كيف لم نفكّر في ذلك من قبل؟ كانت هناك حاجة لأحدٍ يعيد إغلاق النفق. الأضعف من بين الخمسة. الأضعف كانت فتاة. تمّ اختياري، أنا المصابة بفقر الدم، لأبقى.

بقيت.

كانت تلك الانطلاقة. تسلّقوا الواحد تلو الآخر واختفوا. بقيتُ. بقيتُ أراقب أدنى إشارة. سعل حارسٌ. لا رشقات رشّاشات. مرّت دورية. لا رشقات رشّاشات. نبح رهطٌ من الكلاب، كما تجيد كلاب المزارع النباح. أُبقي النفق مفتوحاً في حال ندِم أحد الفارّين واختار العودة إلى الحفرة. لم يعد فارّ. مرّت دورية أخرى. ضربت أضواء مصابيح سيارة على جدار السور واختفت. هدأت دقّات الصدغين تدريجيّاً. نهق كورنيليوس. أغلقنا المعابر.

أُعيد إغلاق المعابر بين الزنازين والنفق بدقّة. استحوذ شعورٌ بالسكون على كلٍّ منّا. لم ترفض أيّة بلاطةٍ أن تأخذ مكانها. لم تهتزّ أيّة واحدة منها. لم تتبعثر حبّة رملٍ واحدة. ولا حبّة منها. لم ننم، ولم نحسّ بالحاجة إلى النوم. انتظرناهم. كانت كلّ

دقيقة صمت دقيقة مكتَسَبة. بزغ النهار على انتصارنا. يأتي الهدوء من الشعور بالانتصار. من المهمة المنجَزة. من الحياة، الحزينة بالتأكيد، ولكن المعاشَة. المعاشة تماماً، لأنّنا دافعنا عنها حتى النهاية.

دارت المفاتيح في الأقفال. كانت أمّي مكلّفة بكسب الوقت قبل كلّ شيء. وقد علّلت غياب أخي الصغير من الزنزانة بأنّه قد حبس نفسه في المراحيض مع الإسهال الذي يعاني منه.

«يمكنكم الدخول.

- كلاّ، لا بأس.»

الزنزانة رقم 2. كان ينقصها شخصان. أوهمتهم مخدّتان تحت الغطاء بأنّ الفتاتين نائمتان في الفراش. على نحوٍ غريب، وللمرّة الأولى، ضرب الحرّاس حواشي الفراش بأعقاب بنادقهم. «إنّهما نائمتان. مريضتان.» هل كانت عصبية الحرّاس تعبّر عن يقظة حاسةٍ سادسة؟ السؤال هو: هل يمتلك حرّاسٌ أمّيون غُسِلَت أدمغتهم حاسةً سادسة؟ أعتقد نعم. للمصيبة علاماتها قبل حلولها.

«لماذا ثلاثتهنّ مريضات دفعة واحدة؟

- عواقب الإضراب عن الطعام.»

كنتُ هادئة هدوءاً ملكياً. أين ولّت انفعاليتي وارتعاشاتي؟ زنزانة رقم 3. تأخّرت أختاي المفضّلتان في توزيع الوجبة الصباحية. اكتسبنا ثلاثة أرباع الساعة. عيل صبر الحرّاس. حان وقت تركهم يفتحون باب الزنزانة رقم 4.

راقبناهم من تحت الأبواب. ساد الذعر. ركضوا في كلّ الاتجاهات عبر الباحة. أخطروا الحرّاس المتمركزين في المَراقِب. خرجوا وعادوا مع معاول ومجارف. سُمِع صوت ضربات المعول في الزنزانة رقم 4. حفروا حفرةً سبق أن حُفرت. ثمّ ظهروا في الزنزانة رقم 1. كان باب المراحيض مفتوحاً. لم يكن أخي في الفراش. كانت أمّي هادئة. الزنزانة رقم 2. انتُزِعت المخدّات من بين الفراش. ظنّوا أنّهم قد جنّوا.

«أين هنّ؟ كنّ هنا الآن؟»

نبشوا في كلّ مكان. هدّدوني بأعقاب بنادقهم. بقيتُ هادئة. كانت أختي المصابة بالصرع تبتسم من فوق حشيّتها. الزنزانة رقم 3. كانتا اثنتين، وما زالتا اثنتين. الزنزانة رقم 4، لم يكن أخي قد عاد. شقّت ضربات المعاول كلّ أرضية الزنازين. كانت مريم تراقب. لم يقتربوا من مدخل النفق. من دون قائدهم، بدا الحرّاس كأجسامٍ بلا رأس. «أوّل من يترك أحدهم يهرب سيموت.» الموت للمغفّلين. كان أربعة من بيننا قد فرّوا، وهذا يعني أربع ميتات موعودة لكلٍّ منهم. بكى أحد الحرّاس. كنّا هادئين. كان الحارس يبكي موته وموت أطفاله المحتَمَل. بقينا هادئين. لم نكن قد أصبحنا قساةً بعد، ولكننا فقط كنّا هادئين، غير مكترثين بالآخرين، منشغلين بعقابنا الخاصّ ومستعدّين لاعتلاء منصّة الإعدام. مع إفراطٍ في طعم الانتصار اللذيذ على شفاهنا. طعمٌ شعرنا به أبعد من شفاهنا.

في منتصف النهار، وصل الكابتن أخيراً. كانت عيناه بركتين صغيرتين من الدم القاتم. سمع أن النهاية قد أُعلِنَت. تحقّق من

عملية الهروب ومن الأضرار الناجمة عن ضربات المعول. كان مضطراً لإعلام رؤسائه. جنّ جنون أجهزة الاتصال اللاسلكية. أُعلن الاستنفار. بقينا هادئين. جمعونا، أختي وأنا، في زنزانة أمّي. كان الفارّون قد هربوا بعيداً. راقبنا بالدور حركة الذهاب والإياب. كانت طائرتان مروحيتان برشاشاتهما المصوّبة تجوبان السماء. حطّت إحداهما وأقلعت من جديد في الحال. شاهدنا وفداً من الرتب العليا بالزيّ العسكري يدخل المعسكر. عَبَرَ الممرّ حوالي عشرة ضبّاط بألبسة عسكرية مختلفة، مع قبّعات وكتفيّات وشرائط الكتف وقفازات بيضاء، وتوقّفوا في الوسط تماماً. من بينهم اثنان أو ثلاثة بالزيّ المدني وهو ما يفترض أنّهم ممثّلو أجهزة الشرطة السريّة. لم يفهم الكابتن من أين تسلّلوا ولا كيف أمكن حدوث ذلك. عشرة أعوامٍ من الخدمة السليمة والوفيّة تلخّصت له بلكمة عنيفة على وجهه وبسيلٍ من الإهانات. كان كلّ ذوي الرتب بحاجة إلى إطلاق مكبوتاتهم. تعرّفت أمّي على جنرالٍ من الدرك يرتدي بزّة برتقالية خاصّ بربّان المروحية. كان قد عمل مع والدي. خلال خمسة عشر عاماً، ترقّى في المراتب وابيضّ شعره بالكامل. أرسله القصر مكشوف الوجه. أمرٌ غريب. هذا يعني أنهم لو استعادوا الفارّين، لكنّا سنموت جميعاً. كنّا نعرف ذلك مسبقاً، ولكنّ الدليل هنا ملموسٌ. لأطلقت المروحيات النار عليهم بإحكام. إلا إذا أصررت، يا صاحب الجلالة، على خيار الموت الطبيعي.

شمّت كلاب بوليسية كلّ شيء في الزنازين وانطلقت في أطراف المعسكر. وفي المَرَاقِب، استُبدِل الحرّاس بعناصر من

الدرك. دار المفتاح في القفل وبدأت الاستجوابات. وضِعَ كرسيان وطاولة في الزنزانة. شرع رجلٌ لطيف الاستجوابات اللامتناهية. استُدعينا، أمّي وأنا، بالتناوب طوال ساعات. حينما كان المحقّق يغيب ليرتاح أو يقضي حاجاته الطبيعية، كنتُ ألتقط كلّ أعقاب السجائر المسحوقة تحت قدميه. وأدخّنها خفية تحت الغطاء. فيندهش الحرّاس لرائحة التبغ.

«إنّه السيّد، رئيسكم، يدخّن بإفراط.»

لم تساعد الاستجوابات في العثور على النفق.

«اسألونا وسنخبركم أين يقع.

- كلاّ، ليس بوسعكم أن تحفروا نفقاً. لقد فتّشنا في كلّ مكان. لقد هربتم من باب المدخل بتواطؤِ أحدٍ ما. حسنٌ. العثور على النفق من وظيفتنا إن كان هناك نفقٌ. حسنٌ.»

في نهاية فترة ما بعد الظهيرة، سمعنا أختينا المفضّلتين تبكيان وتصرخان. كانت المسكينتان في مرمى التعذيب الجسدي. كانوا يستعدّون للتشدّد في استنطاق نساء لا حول لهنّ ولا قوّة. ثارت أمّي وتعالت صيحاتها وصرخاتها:

«النفق في الزنزانة رقم 2 في الزاوية اليسرى، تحت ثماني بلاطات، بعمق مترين ونصف وطول خمسة أمتار!»

شكّكوا في الأمر.

«يمكننا أن ندلّكم عليه.»

توقف البكاء وهدأ الصراخ. تشاوروا. غابوا وعادوا بعد ذلك بنصف ساعة.

اقتُدتُ إلى الزنزانة رقم 2. كانت المعاول قد تركت شقوقاً

في كلّ مكان إلاّ فوق النفق. شكراً يا مريم. أحسنتِ يا مريم. متبوعةٍ عن قرب بمصوّرين، كلّ كلمة من كلماتي، وكلّ حركة من حركاتي وكلُّ لحظة من لحظات صمتي صوّرَت وسُجِّلت، وأُرسِلَت لمن يعنيه الأمر. أراد الملك أن يعرف. أراد الملك أن يرى لكي يصدّق ذلك. طلبوا منّي أن أنفّذ بحركاتٍ بطيئة. طلبوا منّي أن أصف بدقّة كلّ مرحلة قبل الانتقال إلى المرحلة التالية. طلبوا منّي أن أكون فيلماً صامتاً بطيئاً ومعكوساً. باشرتُ بفتح النفق. تظاهر الجنرال المرتدي للبزّة البرتقالية باللطف. بدا وكأنّه ينزل إلى أحشاء الكرة الأرضية. كذلك ترك لآخرين أن يصرخوا عليّ من فوق:

«إذاً، هذا يؤدّي إلى أين، وكيف. . . ؟»

ثماني بلاطات، صليبٌ لمريم، طبقة ترابية من حوالي ثلاثين سنتمتراً، مخدّات بأحجامٍ مختلفة لحوالي مترين ونصف، خمسة أمتارٍ من النفق ومن ثمّ الخروج عموديّاً. لبلابٌ. بعض التوابل.

«- الأدوات؟

- ملاعق.

- المتواطئون؟

- مريم.

- الكلاب الخائبة؟

- التوابل، سبق وقلتُ هذا.»[1]

---

(1) يذكر رؤوف أوفقير في كتابه «الضيوف» عن عملية الهروب، وكيف تم استخدام التوابل للتأثير على الكلاب - المترجم

كانت الكاميرات تصوّر، وأضواؤها تلعلع. منعوني من عبور النفق خشية ألاّ أعود. رُشِّح دركيٌّ للمهمّة. كان الذهول جليّاً من حولي. أعادوني إلى الزنزانة.

الفصل الثالث والعشرون

الاستجوابات الليلية

كان الليل طويلاً. طويلاً وخياليّاً. وحدنا، أمّي وأنا، استجوِبنا، الواحدة تلو الأخرى، وهذه المرّة خارج الزنزانة. اقتادوها أوّلاً. أمضيتُ ساعاتٍ في انتظار عودتها وأنا أدخّن أعقاب السجائر ومراشحها. هل ستعود؟ هل يعذّبونها؟ هل قتلوها؟ عادت أمّي حيّةً. حيّة ومقدامة. معصوبة العينين، ممسوكةً من قبل حارسين، خبط عشواء، جاء دوري. مكثتُ لساعات جالسة على كرسيّ معصوبة العينين، محاطة بأصواتٍ عديدة وبعطرٍ لاذعٍ يثير الغثيان. كانت الأسئلة تندفع. تمسّكتُ بروايتنا: غادروا باتّجاه الحدود الجزائرية.

«كوني عاقلة، إنّهم معرّضون لخطر الموت. هناك ذئاب في الغابة. لا تريدين بعد كلّ حساب رؤية أخويك وأختيك وقد التهمتهم الذئاب؟

– غادروا نحو الحدود الجزائرية.»

أثار اختيار المقصَد جنونهم. كان عمري أربعة وعشرين عاماً منها خمسة عشر خارج الزمن وكانوا يستبسلون في طرح أسئلة

عليّ حول رأيي بذاك السياسيّ وبغيره. تجنّبت الإجابة. كان الهجوم غير مباشرٍ. حينما يستخدم أحدهم الأسلوب اللطيف، يزعق الآخر، ويهدّد الثالث، ويعيد الرابع طرح سؤال الأوّل، ويُرفَض كوب الماء، يبكي حرّاسٌ قريبون جدّاً ويتوسّلون تحت الضربات المتواصلة، تضرب قبضة على الطاولة، تنهال الشتائم، ينال منّي التعب، كان نباح الكلاب وكورنيليوس ومصابيح السيارات أدلّة على صدقي.

«- أَتعتبرين نفسك غاليلو.

- مَنْ هو غاليلو؟

- تعتبرينني حماراً.

- إنّه كورنيليوس، قلتُ لكم. سوف ينهق في تمام الساعة الرابعة، سوف ترون.»

ساد صمتٌ ورع. شاهدتهم يراقبون ساعاتهم. نهق كورنيليوس في الموعد.

«كم الساعة؟

- تمام الرابعة.»

العودة إلى الزنزانة.

أن يبزّهم حمار كان أمراً مهيناً على الأقلّ. بانتظار دور أمّي، التقينا.

«- أنتِ بخير؟

- بخير، لم يعثروا عليهم بعد.

- رائع.

- ماذا تحتاجين؟

- سجائر، يا ماما.»

عند الفجر، عادت أمّي مع علبة من سجائر كول مخفية كيفما كان. رائعة.

نعاسٌ خفيف، ثمّ اقتادونا نحن الخمس إلى مأوى جديد.

الفصل الرابع والعشرون

اليوم التالي للهروب

ظلّت تلك النظرة. صادفتني نظرة الكابتن بورو مكبّلَ اليدين، محاطاً بدركيين. مكبّل اليدين بين دركيين، صادفتُ نظرته. بينه وبيني، تلك النظرة الخاطفة، المنطلقة إلى القدر، قبل الصعود إلى المركبات. المقصد مشنقة. ذلك الصباح، لم أعد أشعر بالخوف. تلك النظرة المقسّمة إلى جزءٍ من ثوانٍ لا تُمحى، ثاقبة. ثمينة. انعكاس. لم يعد أيّ شيء يُظهر لنا بأنّ انعكاسنا في نظرةٍ عدائية. أمرٌ لا يُنسى، انعكاسي المقزّز مضيئاً في حدقة تلك العينين البغيضتين.

ظلّ انعكاس صورتي، العائم في تلك العينين الحمراوين المرهقتين، الغائصتين، الفارغتين بالخوف والإخفاق.

منتصباً على ساقيه، رأيتُ رجلاً ميّتاً يطلب منّي المغفرة دون أن يتفوّه بكلمة. رأيتُ ملكاً مختبئاً خلف منفّذٍ لا حول ولا قوّة له. رأيتُ رجلاً حيّاً يتوسّل الموت العاجل. الأسوأ من كلّ شيء هو أنّ الموت الموعود، غير الوشيك بما فيه الكفاية، كان يجعله إنسانياً بالنسبة لي. كانت جلسات التعذيب لا تزال تبعده عن النهاية. رأيتُ فتاةً صغيرة تصبح امرأة بلا استجابة، بلا رحمة.

دون أيّة لباقة كانت. كان جزءٌ من الثواني كافياً لأنتقم لنفسي. وعِدتُ بالتعذيب والموت، ولكن هذه المرّة من دون الخوف والارتعاش والخجل، مع دموع جلاّدي قبل دموعي. أعرف أن هذا أمرٌ تافه. أعرف أنّ المرء، لفرط الرغبة في العيش بأيّ ثمن، يغدو مثيراً للرثاء. لكلٍّ ثمن عجزه، لكلٍّ ثمن قدرته. لكلٍّ دناءته. أن ينجح المرء في حياته هو ألاّ يعود يخشى الموت. كنتُ أنجح في حياتي، مهما كانت الدرجة صغيرة.

قد يبدو ذلك بلاغة سريعة.

أرغمونا على ارتداء جلابيب الحرّاس. كانت الجلابيب نفسها لنا جميعاً تجعل «نقلنا» أكثر سريّةً. فرض السرية نفسها من أجل الإساءات المطلوب القيام بها. كانت المركبات جديدة. كلٌّ منّا في سيارة. أخذتُ مكاني في المقعد الخلفي بين دركيين. وحظيت أمّي والثلاث الأخريات بالاهتمام نفسه. ما إن أصبح الموكب على الطريق، حتى وضع الدركيان عصابةً على عينيّ وأخفيا وجهي في قبّعة الجلباب. وسرعان ما افتقدتُ للهواء. اشتكيتُ من ذلك، دون جدوى. شرحتُ لهم معاناتي من فقر الدم، عبثاً. كنتُ أنضح عرقاً خفيفاً. بعد ساعتين وصلنا إلى مكانٍ ما. افترضت الوصول إلى غايتنا، في الوقت المحدّد وبأمان. صُفّت جلابيب بداخلها أشخاص وجوههم إلى الحائط. الوجه إلى الحائط! خمّنت عائلتي وحرّاسنا مشتركين في النصيب. على الأقلّ، تمنّيت ذلك. همست:

«- ماما.

– أنا هنا، يا ابنتي.»

أمرتني ضربة على قفا جمجمتي أن أسكت. ثارت أمّي. أسكتتنا معاً ضربة على جمجمة أمّي. سقطتُ على الأرض. أنعشتني أمّي وطلبت بعض السكّر. بعض السكّر، وزال الإغماء. فتحتُ عينيّ في مفوضيّة للشرطة. حشيّة إسفنجية في ممرٍّ لنفترشها. اتّخذنا مكاننا فطرياً نحن الخمس، بعضنا مقابل بعض. صرخ رجلٌ بصوتٍ زائد الحدّة وهو يأمر: «بندة، بندة!» ترجموا: «إبقاء العصابة على العينين!» منذ أن أُغمي عليّ، استُثنيتُ من ذلك. من البندة على العيون. وصفتُ للأخريات الأمكنة وحركة الذهاب والإيّاب. كان رجالٌ يلبسون بناطيل جينز ينقلون أنابيب تمديد طويلة. وآخرون ينقلون مناصِب. وكان اثنان آخران يتبعانهم مع أسلاكٍ معدنية ملوّنة مجدولة، مثل لعبة سكوبيدو. تدفّقت في مخيلتي ذكرى من طفولتي. مسابقات أجمل سكوبيدو متعدّدة الألوان. في سنوات السبعينيات. سنوات الحرية والسعادة. سوف تنتهين إلى أن تسبّبي لي الحزن. تكلّموا بصوتٍ جهوريّ. ضحكوا. وشجّعوا بعضهم بعضاً. سُمِعَت التأوّهات الأولى. الصرخات الأولى. الولولات الأولى؟ أُبقيَت الأبواب مفتوحة. كنّا نسمع صوت الضربات، لحظات صمت، الإيعازات، المسبّات، الضحكات، الولولات، الألم، التعذيب، القهقهات، رائحة اللحم المحترق، المقاومة، فولتات الكهرباء في الخصيتين، أشخاصٌ يغطّي الشعر كلّ مكان في جسمهم يستنجدون بأمّهاتهم. كنّا نسمع الحيوان يتوسّل إلى الله، يتوسّل إلى أمّه العطوفة وإلى كلّ الآلهة. صعدت الدموع. كان

يجب ألاّ تظهر الدموع. تبّاً، هذا يُنجِب شخصاً ينتحب. لا يجب البكاء. كان دورنا سيحين. وكان علينا أن نتهيّأ للتعذيب الجسدي. علينا أن نتخيّل أننا قد نُعلّق على سيخ شواء. الحرية والحياة جديرتان بدورة مشواة. إذا كان لا بدّ من الإذعان هنا، فسنذعن هنا. خاصّة، عدم الاعتراف بشيء. أوشكنا على النجاح. سيكون الأمر سهلاً، ليس لدينا ما نعترف به. حتى وإن عمدوا إلى شيّنا على نارٍ هادئة، لن نقرّ ببراءتنا. حتى وإن أوقِد النار فينا بالسكوبيدو، لن نقرّ بذنبنا في أننا أحياء. وخاصّة، عدم الاعتراف بخطّة السفارات. وعد. وعد. كان الخبر السار، أو إذا فضّلنا أن نقول الجانب الإيجابي من الأمور، هو القبول أخيراً بالموت. الموت حقّاً وجدّياً.

وإلاّ، سؤالٌ بسيطٌ بيننا، ما جدوى التعذيب قبل الموت؟

سوف تفهمين ذلك بنفسك.

أقبل رجالٌ بهندامٍ رسميّ نحونا.

قالوا: «لا ترتجفنّ، لن نلحق بكنّ أيّ أذى.

– ولكننا لا نرتجف.

– أجل، أنتنّ ترتجفن.»

رُفِعَت العُصابة.

«انظرن إلى أنفسكنّ، إنكنّ ترتجفن في كلّ مكان من جسدكنّ. كيف تتخيّلن أننا قد نعذّبكنّ؟ أنتنّ سليلات عائلة كبيرة.»

كنتُ قد نسيت.

اقتدنا إلى مكتبٍ، واحدة تلو واحدة، لاستجواباتٍ أخرى.

شاي بالنعناع وحلويات بلدية. كان أحد الرجال قد استجوب أمّي بعد مقتل والدي ليتأكّد من العدد الدقيق للرصاصات المخفية في جثّته ومن الوزن الدقيق لكلّ ملعقة فضيّة صغيرة. العالم صغير. صغيرٌ للغاية، العالم. كانت اللهجة محترمة وقاطعة ومراوغة ولطيفة ومتوعّدة ودبلوماسية. ثبّط الالتحاق المزعوم بالجزائريين همّتهم. طلب منّي تصحيح مخطّطات السجن على وثائق مخصّصة للملك. أراد الملك بياناً مفصّلاً للأحداث الأخيرة. سوف تسقط رؤوسٌ.

عند حلول المساء، سُجِنَت العائلة الكبيرة في حُجرةٍ. وأختانا في الشقاء في حجرةٍ أخرى. لم تكونا من المقام نفسه. كانت الوجبة عصيدة لزجة بلا ملح. لا ملاعق. هنا أكثر من أيّ مكانٍ آخر، كان علينا أن نتكلّم قبل أن نموت. بولِغ في الاهتمام بنا. أُعطينا ما يشبه المنوّم. كلّ ساعة، كان يدخل حارسٌ إلى الحجرة، فيرفع الغطاء ويجسّ نبض كلٍّ منّا وينصرف ليبلغ عن وضعنا. ممنوع الموت منعاً باتّاً. في اليوم التالي، استؤنِفَت الاستجوابات. بندة، بندة، بندة!. فُرِضَت العُصابة على العينين في الممرّات، وخلال المسافات المؤدّية إلى الحمام أو إلى قاعة الاستجواب. في الواقع، كان الأمر يتعلّق بمفوضية سياسيّة. بقمعٍ سياسيّ. مفوّضية سرّية في قلب المدينة مع رائحة طيّبة من غريزيل.

ثلاثة أيام.

كنّا قد سبقناهم بثلاثة أيام.

في ثلاثة أيام، اشتقنا إلى الفارّين. كنّا فخورين بهم روحياً

ولكنّنا نشتاق إليهم جسديّاً. من المستحيل الحصول على معلومة بشأنهم. إذا كنّا لا نزال أحياء، فهذا فقط لأنّهم لم يقبضوا عليهم بعد. ليس بعد. استنتاجٌ وحيدٌ ممكن. معقول.

اشتقنا إليهم إلى درجة أننا كنّا مستعدّين لأن نندم على الهروب.

في اليوم الرابع، انفتح الباب وظهر أربعة أشخاص لامعين. ارتموا بين أذرعنا دون أن نتمكّن من التعرّف إليهم. كان أربعة غرباء مهندمين ومتبرّجين وحليقين ومعطّرين يغمروننا بالقبلات. لقد نجحنا. لقد نجحنا في إخطار ميدي-1 وراديو فرنسا الدولي وآلان دي شالڤرون وميتران وأحد أكبر محامي فرنسا. لقد نجحنا. دموعٌ. لقد نجحنا. أف! دموعٌ وضحكات.

كنّا محبوسين في مفوّضية سياسية وكنّا نضحك ونبكي فرحاً. أف، لقد انتهى الأمر. لقد نجحنا، أصبح الكابوس وراءنا.

ها، ها، ها.

الفصل الخامس والعشرون

مرّاكش

بعد قضاء شهرين في المفوّضية السياسية، جاؤوا في طلبنا لاقتيادنا إلى مأوى آخر.

هذه المرّة، أسكنونا في ڤيلا في ضواحي مدينة كبيرة في الجنوب. طعام بوفرة، أطباء، طبيب أسنان، تلفاز، راديو، موجات قصيرة وطويلة، مجلاّت، كتب، ألبسة، مساحيق تجميل، كرة قدمٍ من الجلد، محامون فرنسيون، محاميان فرنسيان كبيران.

مساجين.

بقينا مساجين.

كان الفارّون قد حاولوا، كما هو متّفق عليه، الدخول إلى السفارات ذات يوم اثنين، اثنين سيّئ، اثنين فصحٍ. كانت أبواب السفارتين الفرنسية والأمريكية مغلقة في يوم العطلة ذاك. يا للمهزلة! بقيت سفارة السويد. هناك، ردّت موظّفة سويدية في كوّة خلف زجاجٍ مصفّحٍ على طلب اللجوء السياسي: «اذهبوا وإلاّ سأطلب الشرطة!»

أسرعوا في الانسحاب. بعد مغامراتٍ عدّة، نجحوا في التقاء أصدقاء قدماء، حرصوا على إخفاء أمر فرارهم عنهم. أتاحت لهم حالة ألبستهم وأحذيتهم ووجوههم الشاحبة أن يوهموا الآخرين بإطلاق سراحٍ مفاجئ. «تُركنا في الطريق، أطلقوا سراحنا في الطريق دون أن يتفوّهوا بكلمة.» اشتباهٌ على كلّ المستويات. كانت هناك مخاطر كثيرة في طلب المساعدة. ومخاطر كثيرة في تقديم المساعدة لهم. لم تكن الأرض تواصل دورانها فحسب وإنّما كان قد تمّ التسليم تماماً باختفائنا. بدا الناس الذين لجأوا إليهم حائرين مبلبلين بعودة ظهورهم. الأموات لا يعودون. استحصلوا على بعض البطاقات باتّجاه العاصمة. كانت كل أجهزة شرطة البلاد في أثرهم. ولذلك تجنّبوا زيارة عائلتنا. استضافهم أهالي زملائهم السابقين في المدرسة، ولكنّهم طرحوا الكثير من الأسئلة المربِكة. أُخبِرَ خالي بالأمر. وكان الوقت قد حان لقول الحقيقة. لم يُترَكوا في الطريق. وإنّما فرّوا بقوّة المعصم. زيارة قصيرة من خالي. كان لا بدّ من المغادرة بأسرع ما يمكن. بعد أن اغتسلوا ولبسوا وأكلوا، وحصلوا على بعض المال، استقلّ أخواي وأختاي القطار نحو الشمال، بعكس اتجاه الحدود الجزائرية.

في نفس تلك الليلة، أوقِفَ خالي وعُذِّب بالسكوبيدو ليُرغَم على الوشاية بأولاد أخته.

لم يُخبِرهم بأيّ شيء.

وفي الشمال نجحوا في الاتّصال هاتفياً بإذاعة فرنسا الدولية والصحافي آلان دي شالڤرون. وعدهم آلان بأن يبثّ عبر الأمواج

نداءً إلى الملك لإقناعه بإرخاء فكّيه عنّا.

أرسلت الحكومة الفرنسية، التي أُخبِرَت بالأمر، في الليلة نفسها على نحوٍ عاجلٍ عميلاً لجهاز DST لتتأكّد أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بخُدعة. لا خدعة: كانوا فعلاً أولاد أبيهم. في حديقة فندقٍ حيث وجد أخواي وأختاي الملاذ، التقط العميل الفرنسي صوراً لكلٍّ منهم ولأجسادهم المليئة بالرضوض والكدمات. تجمّعت الصُدَف. في اليوم التالي، كان الرئيس ميتران في زيارةٍ رسميةٍ للبلاد. جاء جهاز DST الفرنسي للقاء الفارين في العاشرة صباحاً لاصطحابهم إلى القنصلية والحصول على جواز مرور. نُفِّذ الوعد. ولأنّ البراءة كانت أكيدة، والحالة الإنسانية مثبتة، بات الإعدام دون محاكمة مستحيلاً في وضح النهار.

تعهّدت فرنسا بتأمين ملاذٍ آمنٍ لنا في الجمهورية. كانت فرنسا تلتزم الدفاع عن حقوق الإنسان والحيوان والطفل. ظلّت فرنسا وفيّة لسمعتها كأرضٍ للجوء.

الكثير من المفاجآت والكثير من الصُدَف.

في تمام العاشرة صباحاً من اليوم التالي، في مكان وزمان التزام الجمهورية، جاء جهاز DST المحلّي واصطحبهم في عربة السجن، مكبّلي المعاصم، باتّجاه مفوّضية. من نافذة مكتب الاستجواب، كانوا يرون مريم من الجِبس على واجهة كنيسة. كانت مريم تراقب. إذاً لم يَضِع كلّ شيء. أُعلِم الصحافيون الفرنسيون بالخبر. وافقت شخصيتان مهمّتان في القانون الفرنسي أن تكونا محامينا. وسوف يتدخّل فرانسوا ميتران لصالحنا لدى الملك بين حلوى الباستيلا وقرون الغزال الأربعة.

باتت الحريّة في متناول اليد.

في تلك الڤيلا، كان من حقّ محاميينا أن يزورانا لعدّة مرات، محاطين بحوالي عشرة موظّفين كبار، ومن بينهم رئيس جهاز DST ومحافظ المدينة والناطق باسم القصر. في البداية، استُقبِل السيّدان كيجمان ودارتڤيل من قبل الملك. كان إطلاق سراحنا وشيكاً. بقيت فقط الموافقة على الشروط الأخيرة بغية مداراة كلّ الحساسيات. انتظرنا بفارغ الصبر في غرفة انتظار إطلاق السراح وقد قبلنا بكلّ الروايات المعطاة لذلك الزمن الضائع: لا بدّ من اللياقة يوم إطلاق سراحنا. لا بدّ من إلباس الحيوان لباساً فاخراً لإخفاء حجم التوحّش. لا بدّ من تهدئة الحيوان لتخفيف الإثم المتغطرس للبراءة. لا بدّ من اختبار الحيوان لتذكيره بأنّه ملك الغابة. مع ذلك كنّا بين أيادٍ أمينة. لعبت الصحافة الأجنبية دورها. اكتُشِفَ سجن تاماتاغت للأشغال الشاقّة. فضحت دانييل ميتران الأمر. وبصفتها رئيسةً للبرلمان الأوروبي، وضعت السيّد سيمون ڤييه، مدعومةً من قبل البروفسور ليون شوارتزنبرغ، اعتراضها على مساعدة مالية مرصودة لتنمية هذا البلد الذي يضع أطفالاً في السجن.

كافح محاميانا وجاءا يُطلعاننا على ركود الوضع. مرّت الشهور، ومن ثمّ السنوات. مرّت ثلاثة أعوام. كان محامياننا يقلقان ويعلماننا بذلك. لم يثنِ تدفق وسائل الإعلام الملك. ليس ملكاً كلّ مَنْ يشاء.

في الڤيلا، تم تركيب التكييف في كلّ حجرة من حجراتنا. برزت علائم بقائنا تدريجياً. زاد القفص الذهبيّ من الشعور برهاب الانغلاق. جعلنا الوصول إلى الإعلام والملاهي والمعاملة الحسنة شهوداً سلبيين لهذا العالم. يعرّض العالم برمّته المرئيّ خلف زجاجٍ شرطَ الكائن العاقل للخطر. شكّل السماح لأهلنا، لجهة لأمّي، بزيارتنا تقدّماً حقيقيّاً. التقينا بجدّنا. التقينا بعجوزٍ. خالي وأبناء خالي وخالاتي، بعد ثمانية عشر عاماً. . . التقينا بعائلةٍ كانت غريبة عنّا. علِمنا بموت جدّتنا وأصدقاء ومعارف. أُخبِرنا بمجرى الحياة دفعةً واحدة. علِمنا بالأضرار الناجمة عن الحياة من دوننا. كانت إشاعات بثّتها السلطة قد جعلتهم يصدّقون موت ثلاثة منّا. كان أشخاصٌ، من بينهم ممرّضون وحرّاسٌ في إجازة، قد أكّدوا لهم أنّهم شاهدوا بأمّ أعينهم جثث أمّي وأختي وأخي في معرض الجثث في مستشفى ابن سينا. سمعتُ جدّي يُخبر أمّي بصوتٍ هادئ بأنّه قد ترمّل وتزوّج ثانية، وبأنّ لديها أخاً في الثالثة من عمره وبأنّه قد حرمها من الإرث لكونها عدّت ميّتة. لم أغفر له ذلك قطّ. تعلّمتُ الحياة. كانت تلك العائلة التي بدت غريبة قد عانت مع ذلك كل صنوف الانتقام الممكنة والماكرة: منع مغادرة البلاد، وحالات الإبعاد المستتر. عاشوا طوال ثمانية عشر عاماً أحراراً ومحظورين. كان اسم والدي محرّماً رسمياً، واسم والدتي مطلوبٌ تحريمه في الحياة اليومية.

سُمِح لمحاميينا بأن يأتيا لإخبارنا بالمأزق الذي يجدان نفسيهما فيه. فضّل الملك أن ينفينا بعيداً عن فرنسا، واقترح

إسرائيل. كان شقيق والدي في الرضاعة يهوديّاً. ولكن اختيار إسرائيل، لكونه صادراً عن الملك، كان يُشعِر بفخٍّ خطير. طالب محاميانا بكندا الفرانكفونية. وجهدا في الدفاع عنّا. بات التفاوض شاقّاً، وعلت النبرة. قامر المحاميان الفرنسيان بكلّ ما لدينا. كانت الحيّة العاصّة تضغط علينا.

اتّخذ اليأس وجهاً جديداً.

استغللتُ لحظة فوضى أثناء توديع محامينا لأسأل السيّد كيجمان إن كان انتحاري سيضغط على الملك.

ما زلتُ أتذكّر نظرة ذلك الرجل المدهش، والضغط الخفيف من يده على كتفي الهزيل ووعده: «موتُك لن يضغط على الملك. عوض ذلك، أقسم لكِ بشرفي، سوف ترين عمّا قريب عائلتك حرّة، وهذا في حياتكِ.»

الفصل السادس والعشرون

ب. ك

تعاقبت أشهرٌ من الصمت، طويلةً وفارغة. فارغة وقاطعة. لا أحرار ولا محرّرين. لسنا في السجن ولا مجرّد سجناء. لا أحياء ولا ناجين. بين الحالتين بالضبط.

شهورٌ إضافية، ولماذا؟

قريباً، تسع عشرة سنة من أربعين.

عبثيّون.

من الجهتين، من ضفّة إلى ضفّة، من قارةٍ إلى قارة، ظلّ العبث بكلّ بساطة مخيِّماً. كان عبث متعتك المعتادة على فهم كلّ شيء يلغيني. حدثُ عن الطريق. حرجَلت. كان جليدك في كلّ الطوابق يحزّز إستي، وكان القليل مما تبقّى لي من العصيبات يموت.

أنت قويٌّ جدّاً. قويٌّ للغاية بالنسبة لي.

كنتُ منهمكة في الغناء والرسم حينما جاءت أمّي تبحث عنّي. كانت العائلة كلّها متحلّقة حول سريرها. طلبت مني أمّي أن أؤكّد الرواية المذكورة في كتابٍ منشورٍ في فرنسا وممنوعٍ في

البلد. سألتني أمّي إن كنت حقّاً قد اقترحتُ على محاميَّ أن أنتحر لإنقاذ عائلتي.

كانت واحدة من خالاتي قد تمكّنت من اقتناء وقراءة صديقنا الملك لجيل بيرو[1].

خُطِفتُ تماماً. فأكّدتُ أنني قد عرضتُ ذلك الاقتراح وعدتُ إلى غرفتي.

شعرتُ بأنني قد غُدِر بي من قبل ذلك المنشور. كان السرّ الذي تقاسمته مع محاميَّ قد أُشيع لصالح المصلحة العامّة. والمصلحة العامّة، في هذه الحالة بالضبط، هي فضح انحرافات السلطة حتى جعلها تخضع. ولهذا، كان السرّ المباح مغتَفَراً. عدا أنّه كان يفرض عليّ الانتقال إلى الفعل. كان يجب أن يكون اقتراحي بالتضحية بنفسي في سبيل أهلي، وقد كُشِفَ، بمستوى صدقي.

كان عليّ أن أنتحر.

سأنتحر، يا جورج.

بالكاد فتحتُ عينيّ نصف المغمضتين على هذا العالم نصف المغلق. كان عليّ أن أنهي قدراً. قدري.

قرّرت التاريخ في الثالث من آذار (مارس). بدا لي يوم عيد العرش مثالياً للتأثير في النفوس. أن أفسد ولو قليلاً عيدك، لم يكن ذلك حقّاً موتاً مجّانيّاً. كنتُ لا أزال ساذجة لكي أعتقد بأنّ

(1) صدر عن دار غاليمار، باريس 1990.

موتي قادرٌ على تعكير عيدك. لا شكّ أنّك كنت ستعبّ الشمبانيا بالمناسبة... ولكنتَ محقّاً تماماً، أستحقّ على الأقلّ الشامبانيا.

في التاريخ المحدّد، أربكتني عائلتي. إلحاق الأذى بهم، مهما كان موتي يؤذي أحداً ما، أرغمني على أن أتردّد. اخترتُ التراجع في حياتي. رؤيتهم أقلّ ما يمكن، ملاقاتهم من بعيد، مشاركتهم أقلّ ما يمكن، كان ذلك أيضاً بمثابة منح نفسي الوقت والقوّة على القبول. أخذتُ وقت «إبطال الاعتياد عليهم» عليّ. أخذتُ وقت انفصالي عن الحياة بهدوء، على إيقاعي.

حبيسة غرفتي، كان الرسم والموسيقى يريحانني. رسمتُ بورتريهات باتريسيا كاس حسب بوسترات أو أغلفة أسطوانات. طلبتُ وحصلتُ على ألوانٍ زيتية وريَشٍ للرسم. تمرّنت طوال النهار بالمواد الجديدة وأنا أستمع إلى الألبوم نفسه تكراراً. عند حلول المساء، كنتُ أكتب لها. كتبتُ يومياً إلى ب. ك. التي باتت متنفّساً لي. كتبتُ، لفتاةٍ في التاسعة عشرة من عمرها لا أعرفها، أيامي الأخيرة. لأنّها كانت تمنحني ومضةً، كنتُ أختارها نقطة التهرّب. ولأنّها لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك، أحببتها من قلبي الحنون الذي هو قلب مراهِقةٍ متخلّفة انتحارية. تمنّيتُ لها السرّاء التي لم أحظَ بها. تمنّيتُ لها إكمال حلمها. بحتُ لها برجوعي القهقرى، وأنا أدوّن كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ لحظة، العدّ العكسي. كان عدد أيّامي يصغر بالتتابع، وكلمات «أحبّك» خاصتي تفيض. كانت تفيض.

أعطى عنادي بخصوص الرسم نتائج طيّبة. خلال بضعة أسابيع، تحوّلت باتريسيا كاس من عفريتة شقراء إلى واقعية

مفرطة. نابضة بالحياة على نحوٍ متزايد، طريحة جدران غرفتي.

علمتُ مؤخّراً بوفاة أمّها. ارتديتُ سواد حدادها مع شموعٍ مضيئةً ليل نهار. بكيتُ الخسارة التي كانت خسارتها طوال عشرة أيام. بكيتُ تلك السعادة الهشّة، الهشّة للغاية، تلك المصيبة التي حتماً لا توفّر أحداً. كانت عائلتي قلقة من حولي. لم تعد تلك العبادة تسلّيهم. تلك الموسيقى المتواصلة، تلك العناوين العشرة المتواترة وتّرت أعصابهم.

باتت باتريسيا كاس منبوذة منذ ذلك الحين لأنّها كانت تبكيني كلّ الوقت.

كنتُ محمومة. أعلن التلفزيون المحلّي أن باتريسيا كاس ستغنّي في البلد. كان لا بدّ لي أن أشاهد حفلتها قبل الرحيل. طلبت أمّي من السلطات أن تسمح لي بحضور العرض بهويّة مزوّرة محاطة بالحرس، ما دامت هناك حاجة لذلك. أُبدي الرفض بابتسامة ساذجة. لم يكن بوسعهم أن يفهموا. ارتفعت درجة حرارتي إلى الأربعين. أُقيمَت الحفلة من دوني. كانت مهمّة خالاتي العثور على الفندق الذي تنزل فيه المغنّية وتسليمها مذكّراتي اليومية دون قراءتها. أُنجِزَت المهمّة، عاملتهنّ الفنّانة بودّ ودعتهنّ إلى جولتها. لم تكن تعرف بعد هويّتي. عادت خالاتي برسالةٍ منها تؤكّد لي فيها تعاطفها. لم تكن قد قرأت اليوميات بعد.

انتظرتُ طويلاً جواباً لم يأتِ أبداً.

بعد عشرة أعوامٍ من ذلك، بينما كانت توقّع لي في مسرح

أولمبيا في باريس، شكرتها على مساندتها لي. شَحُبَ وجهها. لقد عانت ما فيه الكفاية من المعتوهين والمتعصّبين.

طلبت من أحد موسيقييها أن يُخرجني.

بعد خمسة أعوام من طردي من أولمبيا، دعاني كريم إلى حفلتها في البلد. دفع عنّي قيمة البطاقة وأجرة الفندق وإذن المرور إلى العرض. بعد الكسكسي، ابتسمتْ.

قضي الأمر.

الفصل السابع والعشرون

ابنة أبي

حقّق كتاب جيل بيرو أفضل المبيعات في فرنسا. اشترت وزارة داخلية الملك معظم الطبعة الأولى. فأُعيد طبعه. حقّق نجاحاً واسعاً. كان بيرو احتاط باستخدامه الصيغة الشرطية ليخبر جمهور القرّاء بأنني - أو على نحوٍ أصحّ قد أكون - ابنة الملك.

قد أكون، حسب بيرو، الابنة غير الشرعية للملك. هل تدرك التحدّي الذي يواجهني؟

ربّما تكون محقّاً في ابتياع هذا الكتاب الخليط. كان التحدّي كبيراً جدّاً بالنسبة لكلينا. ابنتك، وثمّ ماذا، أيضاً! قد أكون سليلتك، بضعة منك. قطرة ساقطة من قضيبك الهستيري. نُعلَم بذلك كلّ يوم. كلاّ، لا أحبّك، وهذا من أعماقي. لهذا، لا يمكنك أن تكون أبي. كلاّ. سألتُ أمّي إن كان يمكن لذلك أن يكون صحيحاً صدفةً. أجابت بحنان: «كلاّ، أنتِ ابنة أبيكِ.»

صدّقتها.

سأبقى ابنة أبي.

أبي هو الذي من أجله قاومت. أبي هو الذي أدافع عنه منذ أن لم يعد هناك أحدٌ ليدافع عنه. مآثره الحربية، أخطاؤه

المحتَمَلة، موته، لم يكتبها التاريخ بعد في الترتيب المناسب. لم يعِش والدي ما يكفي لزيادة مآثره، أخطائه، أو تصحيحها. أبي ليس مذنباً بالجرائم التي ارتكبتَها بعده مثلما نجحتَ في إقناع جيلين بذلك. لم يستهدف أبي قط أطفالاً. أبي، أحبّه، وكنتُ سأحبّه حتى ولو كان بائع بطاطا.

أَتسمعني، أحبّه، أبي!

كلّ 16 آب (أغسطس) تُضيء شمعةٌ في ذكراه أينما أكون في هذه الدنيا. وضع جان-كلود ومائيته في حديقتهما قبراً تذكارياً تخليداً لذكراه. أينما أكون، أُضيء شمعةً من أجلك، يا أبي الذي أحبّ كثيراً رغم كلّ شيء.

ذات يوم، خلال عشاءٍ في مرسيليا، ناداني أحدهم سمّو الأميرة... كان هناك الكثير من الحسك في حساء السمك.

الفصل الثامن والعشرون

كندا

دخلت شاحنة تصوير إشعاعيٍّ كبيرة إلى الباحة بصعوبة. كان علينا أن نصوّر إشعاعياً رئاتنا. فكندا تتطلّب شروطاً صحّية صارمة. أودِعَت عشرات الآلاف من الفرنكات في حسابٍ مصرفيٍّ في مونتريال. جاء شرطيون لأخذ بصماتنا وصورنا الشخصية بغية منحنا بطاقة هويّة وجواز سفر. وجُرِّدَت مخازن من محتوياتها ليُتاح لنا ارتداء ألبسة دافئة. وافق الملك أخيراً على لجوئنا إلى كندا. كان محامِيانا مذهولين. وكنّا مفعمين بالرضا. فحلمنا بدأ يتحقّق. كندا، القنادس والمساحات على مدّ البصر، الحرية أخيراً ومكان للعيش. حسب محامِيينا، كان الكنديون يستعدون لاستقبالنا بحفاوة. كان وفدٌ ينتظرنا عند سلّم الطائرة. في اليوم التالي، كان السيّد كيجمان سيغادر إلى مونتريال. أعلنت الإذاعات الفرنسية والكندية نبأ لجوئنا. جرت تسوية الترتيبات الأخيرة، وثُبِّت موعد الإقلاع في اليوم التالي، الثلاثاء، في الساعة الحادية عشرة.

كانت الليلة قصيرة ومدهشة.

في السادسة صباحاً، عُقِد اجتماعٌ ملكيٌّ طارئ.

ليس بوسعنا المغادرة لكون الملك أراد استقبالنا. رأى بعض أفراد عائلتي، وهم ذاتهم دائماً، في تلك الدعوة الفرصة لطي الصفحة نهائياً. كان ثلاثة أشخاص يفكّرون ويفرضون وجهة نظرهم على جميع الآخرين، الذين لا يفهمون حيل السياسة والسلطة. وسخروا منها بحقّ.

بقيت المقابلة الموعودة، والمقابلة تعني البروتوكول.

ماذا كان البروتوكول المتوقّع؟

إتباع إيعازات الحاجب، التوقّف على بعد ثلاثة أمتار من الملك، تقبيل يد الملك الأب والإله، حينما نُدعى إلى ذلك. لا يبدو ذلك معقّداً، باستثناء أنني لن أقبّل أبداً يد الذي قتل أبي بخمس طلقاتٍ غادرة. تعالت صيحات الغضب: «عمركِ ثمانية وعشرون عاماً. لا تمثّلي دور المراهقة وخفّفي تمرّدكِ. نحن تسعة في الحبس، إذاً...»

إذاً سأبقى منعزلة، ولن أقبّل يد ذلك الشخص.

هو ليس مجرّد شخص، إنّه ملك.

حسنٌ، إنّه شخصٌ ملك.

من المتاح للمتمرّدين والمراهقين أن يفرغوا دمهم حتى قبل المعركة.

لم تكن المقابلة سوى خدعة ولم تحصل قطّ.

كانت مسخَرة النفي إلى كندا وسيلة لإلهاء الرأي العام. وإذ أُعلِن ذلك في وسائل الإعلام، لم تعد للنفي أهمية تُذكَر. بالنسبة لأغلبية الناس، كنّا في كندا وكانت محنتنا قد انتهت تماماً.

بالنسبة للقسم الآخر من الرأي العام، كنّا قد اندمجنا من جديد بالعائلة الملكية. وتمّ تعويضنا.

حتى السيد كيجمان، ذو الذكاء الأسطوري، انخدع. أسمعَ غضبه وغيظه. فمُنِعَ منذ ذلك الحين من زيارتنا.

عُدنا إلى المربّع الأوّل.

بقينا محبوسين، منعزلين، منفردين.

كان موعد موتي القادم يقترب وبدأتُ أرى فيه منذ ذلك الحين خلاصاً. بقيت عشرة أيامٍ بالضبط. واصلتُ الكتابة إلى باتريسيا كاس وأنا أعدّ عكسياً أجزاء الثواني. سرقتُ باستمرار، خلسةً، الأقراص المنوّمة لأختي. كان كلّ يوم يمرّ طويلاً وخاطفاً في آن. انقضى أسبوع وجاؤوا في وفدٍ يخبروننا بإطلاق سراحنا في الأيام التالية.

قالوا: «خلال يومٍ أو يومين، ستكونون أحراراً.»

ضحكتُ لأنّهم أضحكوني. كيف أصدّقهم؟ قلتُ ذلك بأعلى صوتي:

«هذا ليس صحيحاً. أنتم تكذبون، مثلما كذبتم بشأن كندا، وبشأن المقابلة، تكذبون اليوم، كما دائماً.»

أكّدوا كلامهم:

«لقد استفدتم من عفوٍ ملكيّ. سوف يُطلَق سراحكم خلال يومين إن وافقتم على كتابة رسالة إلى الملك، تتعهّدون فيها بعدم فضح محنتكم.»

تشاورنا فيما بيننا بلغة القنادس لكي لا يفهموننا. في الواقع،

لم يكن لنا من خيار. لم تعد هناك أهمية لرسالة بيننا. كُتِبَت الرسالة، وأُمليت، وضُمِّنت تعابير التعظيم الجميلة والفضفاضة. وعِدنا بالإفراج في السادس والعشرين من شباط (فبراير)، عشية عيد الميلاد الثاني والعشرين لأخي الأصغر، ليُتاح له الاحتفال به في الهواء الطلق.

لفتة جميلة.

لأنّني شكّاكة، آثرتُ العودة إلى غرفتي.

بينما كان كلّ أهلي يحتفلون بالحرية القادمة، كان عليّ أن أبقى متأمّلة في موتي، في وسائل عدم إخفاقي هذه المرّة.

كان إطلاق سراحنا قبل انتقالي إلى التنفيذ بثلاثة أيام أشبه برواية مغامرات تافهة.

كانت سماء بغداد تفرقع.

كان إطلاق سراحنا في غمرة حرب الخليج فعلاً تافهاً جدّاً.

كانت الفكرة المغالية في تقديرها عن الحرية تبتعد بهدوء.

الفصل التاسع والعشرون

العودة إلى الأصول

لم يكذبوا هذه المرّة. أُطلِقَ سراحنا.

«أُعفيَ» عنّا في 26 شباط (فبراير) 1991، بعد تسعة عشر عاماً وشهرين وثلاثة أيام.

سبعة آلاف وخمسمئة يوم بالتمام والكمال.

تركونا في بيت خالي، الذي لم يشِ بنا. وضعوا حراسّاً تحت تصرّفنا، وكأنّ حضورهم كان ينقصنا بالأساس. حينما جاءت الإذاعات والتلفزيونات الأجنبية تطرق بابنا، ضاعفوا من وعود استرداد أملاكنا، وإعادة الاعتبار لنا كعائلة كبيرة، وذكّرونا بعودتنا غير المؤمّلة، والإعجازية، إلى العائلة الملكية.

قالوا إنّ الملك قد سامحنا وهو يتهيّأ لتعويضنا، وإزالة كلّ آثار الماضي، وجعلنا نعيش أفضل من ذي قبل.

ولكن مَنْ كان ينبغي أن يسامح مَنْ؟

كان الابتزاز الظاهر محبِطاً.

فكّر الكبار وأمّي. يفكّرون في حرية حصرية دون الوسائل المالية. وفضّلتُ أنا وأختي التي تكبرني بأربعة عشر شهراً المكروفونات والكاميرات. لم تعد الثقة موجودة. طبعاً، لم

نُسمِع صوتنا وستكلّفنا لامبالاة وسائل الإعلام غالياً. سوف نقضي أربعة أعوامٍ ونصف إضافية في سجنٍ في العراء، في طول البلاد وعرضها.

رغم كلّ شيء، كانت الخطوات الأولى على الطريق مدهشة. جعلَنا الشعور بالمشي على سجّادة تسير سيراً إلى الوراء نتعثّر. وبدا الإسفلت وكأنّه ينزلق تحت الأقدام ويطيل الخطوات. كان الخطّ المستقيم مستقيماً جدّاً وطويلاً جدّاً. الأفق عديم الأبعاد. مستسلمةً لشمس شباط (فبراير) الجميلة، كنتُ أزدرد السماء لي وحدي. اكتُشِف كلُّ شيء. كان ينبغي اكتشاف كلّ شيء. كان العالم كلّه، الدنيا كلّها، حرّين في اكتشافي، والتعرّف عليّ، ومدّ الأذرع إليّ، وطلب المغفرة منّي. كنتُ أعود. كنتُ أعود حيّة، حيّةً ومبتسمة. ألقيتُ الأقراص المنوّمة في البحر. كنتُ أنام والباب مفتوح، وسكّينٌ تحت مخدّتي. لم تعد مفاتيحي المنفصلة عن بعضها بحلقاتٍ بلاستيكية تصرّ. الحرية حسّية. الحرية إحساس. الحرية إحساس مدهش. ليست الحرية روحاً وإنّما جسد. على البشرة، داعبت الريح، الشمس، المطر، الألوان الفاقعة الذاكرة في اتّجاه الشعر. اليدان في الجيبين، الموسيقى في الأذنين دون أن تكون هناك أيّة حياة في الوراء، مع كلّ الحياة في الداخل، مع كلّ الحياة في الأمام. انطوائيةً في كلّ شيء، انطوائيةً في كلّ ما تبقّى، كنتُ أبحث، دون أن أتوسّل إلى أحدٍ، عن ذراعين كي أختفي، أخبّئ رأسي العليل، وعينيّ المنذورتين للسماء الواسعة.

جاء أناسٌ للقائنا. أناسٌ تحدّوا الحراس ليأتوا لمعاينة حيوانات المعرض. اندهش أولئك الناس لرؤيتنا نتكلّم ونأكل ونلبس بطريقة سليمة. اندهش بعضهم إلى درجة أنّهم شكّكوا في صحّة حكايتنا. اندهش آخرون لكوننا لسنا في كندا. خاب ظنّ آخرين لخدمات حديقة الحيوانات.

ولم يعد معظمهم لزيارتنا.

كان البيت الكبير لطفولتي قد نُهِبَ ومن ثمّ أُزيل. وعزي الذنب في ذلك إلى الجرذان التي أتلفت كلّ شيء. كان بيتي قد أُزيل ونُهِبَ حتى أصغر ذكرى. أصبح البيت الذي أوقدتُ فيه نار الحطب بسيجارٍ جميلٍ، أرضاً بوراً. التهمت الجرذان كلّ شيء، حتى صور العائلة. أعرف أنّها قادرة على ذلك. نفذ النمل من بين الاتّهامات ونِعم ما حدث. رفضت الحكومة تسليمنا شهادة وفاة والدي. لم يجد أيّ موظّفٍ في نفسه الجرأة على أن يضع توقيعه على شهادة وفاة رجلٍ كان يستمرّ في ملاحقة المملكة لعشرين عاماً بعد وفاته. لا يهم، كان ذلك من أجل استعادة الملاعق الصغيرة، ولكن بما أنّ الملاعق الصغيرة الفضية قد التُهِمَت من قبل الجرذان، لا حاجة لإيلاء أهمية لذلك. لم نتمتّع بحق نيل جواز سفر، وكذلك حقّ العمل. أُفزِعَ الأصدقاء الجدد، مصادفةً، من قبل جهاز DST في منتصف الليل وهُدِّدَت عائلتهم. قُتِل ابن خالي البالغ واحداً وعشرين عاماً بحادث سيارة في قلب المدينة. أدركتني الحقيقة. حملٌ صغيرٌ، عرقوباه مشدودان بالحبل، معلّقٌ فوق الغابة الكبيرة جدّاً التي تكشف عن طريق المقابر. يبقى الموت في العشرين من العمر لا يُغتَفَر.

عَلمتُ بموت مارك. ماركي الجميل، لماذا أنتَ أيضاً؟ تبيّن أنّ حليمة، واحدة من أختَيَّ الأثيرتين، مصابة بالسرطان في الأمعاء، وقضت بذلك بعد عامين.. la mer vastc me reconnut.. لم أكن أكترث للأزهار والأشجار التي لم أعد أمتلك ذكراها. كانت البيرة تهدّئ لحظات نومي الشمسية التي لا مفرّ منها. كنتُ في التاسعة والعشرين من عمري وأتذوّق مداعبتي الأولى. على مقعدٍ، فوق حريسةٍ، سبّبت لي مداعبات رجلٍ ارتعاشات جديدة. لامس فمي شفتين عذبتين كانتا تلحسان كلّ ما حولهما. دخل لسانٌ عنوةً في فمي. لفظت بصقةٌ على الأرض المعشبة السائل الذي ولج فمي. أتت ضحكةٌ مجنونة على الرحب والسعة. جعلتني تلك القبلة الفرنسية الأولى أفهم على نحوٍ أفضل لقبنا بالضفدع. ثمّ، ليلة الحبّ الأولى، المضجرة كثلاثة أيام سجن. ثمّ، علاقةٌ مع آخر، مختلف، استمرّت ستة أشهر. «هذا لأنني الأوّل»، لم يكفّ عن قول ذلك لي، ومنشفة حول خصره. الحاجة إلى الأحاسيس الجسدية المماثلة للجوع والخوف والبرد والشمس الحارقة وللموت في العشرين من العمر، لم تعد تسمح لي بالتلهّي. هجرتُ رَجُلي الأوّل. تلك الحركات المستمرّة في داخلي وعلى جسمي، دون أن تحسن أو تسيء إليّ جعلتني أنفصل بلباقة. آسفة، أنا بحاجة إلى الحياة. أنا بحاجة إلى قوّة العيش. أنا بحاجة إلى الأحاسيس القويّة. أنا بحاجة إلى الأحاسيس المفرطة لأتعرّف على نفسي في الحياة.

في ذلك الصيف، التقيتُ صديقتي الأولى، جامي. خفق

قلبي الصغير بقوّة، بقوّة كبيرة في جسدي النحيل المتغيّر. كانت جامي جميلة وتحبّني. أحبّتني بكلّ مودّة. منذ باتريسيا كاس، تعلّمتُ أن أرتاب في الدروب التي يسلكها هذا القلب الصغير الطائش والمجنون الذي يخفق في كلّ مكان وكيفما كان. أحبّتني جامي، وعلاوة على جمالها، لها قصّة. كان جدّها الباشا الگلاوي يملك الكثير جدّاً من القصور، وهي الآن عبارة عن أنقاض، حيث كنّا محبوسين في واحدٍ منها. دعتني جامي لقضاء شهرٍ من العطلة على شاطئ البحر معها وعائلتها. قالت لي جامي إنني لن أنسى أبداً ماضيَّ، أبداً، أبداً وعلى الإطلاق. كما قالت لي جامي إنّه سيكون عليّ أن أتأقلَم مع وضعي. في الواقع لن أنسى أبداً، ولكنني سأتأقلَم... لو أردتُ ذلك.

كانت لها عينان خضراوان رائعتان.

«لن تنسي أبداً»، كانت تكرّر لي دون أن يرفّ لها طَرف.

سوف يكون كلّ شيء بيدي. لمرّة واحدة. للمرّة الأولى، كنتُ، حسب جامي، حاسمة فيما سأفعله بحياتي، بماضيَّ، وحاصلهما سيمنحني مستقبلاً. مستقبلاً أختاره.

إذاً كان يتوقّف عليّ وحدي شكل تحوّلي.

شكراً يا جامي، ولكنني سأفعل كلّ شيء لأنسى كلّ شيء. علاوة على ذلك، لم أعتَد على اتّخاذ القرار. سوف أحاول أن أنسى لأنّه عليّ أن أنسى كي أتقدّم. كان عليّ أن أنسى كلّ شيء كي لا أتميّز وسط الجمهور. لا بأس بهذا، أليس كذلك يا جامي؟

عادت جامي إلى بيتها في باريس.

بناءً على نصائحها، غادرتُ العاصمة ووجدتُ وظيفةً في مجال الإعلان بصفة مصمّمة دون الحاجة إلى شهادات، مؤهّلي الوحيد في ذلك هو مهارة فائقة في الريشة. وإذ كانت كرّاستي تُجْمِل صور لوحات باتريسيا كاس، لفتت سكرتيرة الإدارة نظري إلى أن ذلك ليس من الإعلان. «هذا ليس من الإعلان، يا سيّدتي، هذه بورتريهات زيتية لمغنّية شابّة واعدة.» حدّدت السكرتيرة موعداً لي في الأسبوع التالي. نصحتني بأن آتي على الموعد بهيئةٍ لائقة إن كنتُ أريد أن أحظى بفُرصة في العمل.

عند وصولي إلى الموعد في الوقت المحدّد، ألقيت تحية الصباح، وأنا أعتمر قبّعة معكوسة إلى الخلف، وأرتدي بنطالاً عسكرياً، وأنتعل حذاءً رياضياً مثقوباً. خلف مكتبه الوسيع، أمسك المعلّم برأسه بين يديه. نظر إليّ من بين أصابعه كطفل. مددتُ يدي إليه. صافحته بعنفوان وأنا أنظر في عينيه. كان الوحيد الذي ابتسم. دار حديث التشغيل حول الرسوم المتحرّكة. برّرتُ اختيار لباسي بحقيقة أنّ إنسانة دنيئة ترتدي لباساً من إيف سان لوران، تبقى دنيئة ينبغي عدم تشغيلها. وافق على أن أعمل على سبيل التجربة. أثارت سذاجتي حيرته، ونال عملي إعجابه. بعد ثلاثة أشهر من الاختبار، أخبرني بانضمامي الرسمي إلى فريق الإخراج. رجلٌ واحدٌ في كلّ المملكة وافق أن يمنحني وظيفة. بعد ستة أشهر، طلبتُ أسبوع إجازة لكي أحضر جولة جان جاك غولدمان. رفض بشكلٍ قاطع. بحجّة حداثة عهدي في العمل. عفواً؟ بكلّ حسن نيّة العالم، لم أفهم شيئاً من تلك المبررات. كنتُ في خضمّ الحياة، لم يكن لديّ الوقت، المزيد من وقت

الانتظار، المزيد من الوقت لأضيّعه. كنتُ أحبّ موسيقى جان جاك غولدمان وسوف أذهب لمشاهدة كلّ حفلاته في خمس مدن مختلفة.

«قدّمي استقالتكِ»

كتبتُ استقالتي التي أملاها عليّ زميلٌ حنون، جاعلةً كلّ الفريق يعاملني برعونة، واستقللت القطار لأعود إلى بيتي.

دوشٌ، وشطيرةٌ في حقيبة الظهر خاصتي، وها أنا ذا أنتظرُ طويلاً أمام الملعب. كان هناك حرّاس حول الملعب كلّه. الكثير جدّاً من الحرّاس حول الملعب. تعرّف إليّ زميلٌ مختصّ بالإضاءة وسمح لي بحضور العرض. شاهدتُ الحفلة، ثمّ مكثتُ في القاعة الخالية، ملتصقة بالمسرح. كان موسيقيّان يرتّبان الأعمدة والتركيب. تعاطفنا مع بعضنا. سألني أحدهما مَنْ كانت تلك الفتاة الجميلة إلى جانبي. لم تكن أنا. تواعدنا في مدينة أخرى لحضور الحفلة الثانية. في نهاية الحفلة الثانية، منحاني إذن مرورٍ لما بعد العَرض. تعرّفتُ على بقية الفريق ودعوته في اليوم التالي مساءً إلى وجبة الكسكسي. ذهبتُ في طلبهم في الفندق. كان قنصل فرنسا وعناصر DST المحلّي يشغلون مدخل الفندق. سرتُ في خطّ مستقيم، توخزني إبرٌ في ظهري. شرح لي ديديه، رئيس جهاز أمن جان جاك غولدمان، أنّهم لن يستطيعوا جميعهم حضور العشاء. تقاسم نصف عدد الفريق وجبة الكسكسي.

جعل ضحك كارول فريديريك السخيّ تلك السهرة رائعة.

إلى اللقاء قريباً يا كارول. إلى اللقاء القريب، يا ديديه.

حضرتُ خمس حفلات. كانت الطائرة على المدرج

وستقلّهم إلى باريس خلال ساعتين ونصف على خطٍّ مستقيم. كان القنصل الفرنسي وعناصر جهاز DST المحلّي موجودين هناك لتذكير جان جاك كم كانت العلاقات الشبيهة بالعلاقة معي تعرّض للخطر حسن سير جولته.

تحت شجرةٍ، أمام المطار، أمسك جان جاك بيدي وأجاب: «أصدقائي هم مَنْ أختارهم، ولا أحد، على الإطلاق، سوف يغيّر في ذلك بشيء.»

أخيراً، كنّا في عام 1992.

أخيراً هناك أحدٌ ما لم يكن يستسلم للترهيب بالبراءة.

رحلوا، وبقيت. بقيتُ لأنني لم أستطع الرحيل.

عدتُ إلى بيتي الصغير، إلى وحشته، والموسيقى تملأ رأسي، والحنق من عدم القدرة على الذهاب إلى فرنسا ورسالةٌ على المجيب. كان معلّمي الوحيد والسابق يعترف لي بعدم المسؤولية ويعلمني بأنني أستحقّ تسامحه وحمايته. وافق على أن ألتحق من جديد بمكان العمل مع علاوة إضافية على الراتب. في الوقت الذي رفضتُ فيه العرض، شكرته من كلّ قلبي على ذلك. السفر على الطرقات، ملاحقة الموسيقى، اتّباع غريزتي، كان ذلك ما أريده. إنّه الشيء الوحيد الذي يمكنني إنجازه. تذوّقتُ لأوّل مرّة فضاء الوجود، المرتجّ. من المستحيل العودة إلى مكتبٍ في ساعاتٍ محدّدة. لم يعد هناك وقتٌ في انتظار الترقيات، كان لا بدّ من إزالة الغبار عن المسارح، الآن.

بعد عامٍ من ذلك، أبدت ڤيرونيك سانسون الحماسة نفسها في محبّتي، الالتزام نفسه، الجسارة المعنوية نفسها. بعد عامٍ من ذلك، وفي ظروفٍ مماثلة، أركبتني ڤيرو في سيارتها الليموزين تحت النظرة اليائسة لقنصل فرنسا.

حبيبتي ڤيرو، أحبّك. تعرفين كم أحبّك.

حظيتُ بالحفاظ على صداقة ڤيرو وجان جاك، أنا، قدّادة همستر[1] الصغيرة التي لا تكلّ في فقاعتها البلاستيكية، أنا، كرة الشعر الصغيرة بلا دماغ، التي تركض وسوف تركض في الفراغ إلى اليوم الذي سأكون فيه فخورة بنفسي تحت أنظارهم.

ذات يوم، سيكونان في الصفّ الأوّل في قاعتي.

---

(1) قدّاد همستر: حيوان من القوارض شبيه بالجرذ. المترجم

الفصل الثلاثون

الهروب الفاشل

طوال ثلاثة أعوام، دفعتُ أجرة سكني من خلال تنفيذ بورتريهات منقولة من صور فوتوغرافية. أحياناً، طُلِبَ منّي ألاّ أوقّع باسمي. أحياناً، جمّلتُ ذقوناً وآذاناً سَمِجة. وقّعتُ دائماً باسمي ودفعتُ أجرة سكني.

ذات مساء، عرضت عليّ صديقة أن أخرج من بيتي. كانت المغنّية تُدعى فلورانس. التقيتُ فلورانس التي كانت تغنّي في بيانو-بار مجموعة أغاني فرنسية. اكتشفتُ الحبّ المجنون، وفي اليوم التالي، تعذّبتُ لرحيلها إلى باريس وفي يديّ وردتاي.

صعقتني فلورانس ومن ثمّ رحلت مثلما يستطيع الجميع الذهاب نحو الجمهورية. جعلت فلورانس قلبي الصغير المنهَك يخفق بقوّة، بقوّة، بقوّة. ما زالت فلورانس إلى اليوم منبّهي القلبي للخلود الذي وعدتني به. فلورانس هي نسغي، أوكسجيني، ملكتي، جرحٌ، قمّتي وكلّ أعماقي. والنور القصيّ. فلورانس هي كلّ قياماتي الموعودة.

حينما تضحك فلورانس – حينما فلورانس تضحك – أنت لا تعود شيئاً. لا تعود موجوداً. حينما تكون فلورانس سعيدة، أنت

تختفي. يتلاشى الألمُ الذي سبّبته لي تماماً، لا يعود يؤلمني. حينما تغفر لي فلورانس، آنذاك سيسعني التخيّل، ذات يوم، أن أتعلّم الغفران.

حينما كانت فلورانس تقول لي: «أحبّكِ»، كانت تفتّتكَ.

في نسمة صغيرةٍ، بين كلمتين خلف أذنيّ الصمّاءتين، كانت فلورانس تخفيك من كوابيسي.

يا لتعاستنا، لقد اكتشفت الحبّ.

كان أجمل ما فيّ قد بقي سليماً. كان بوسعي أن أحبّ. اكتشفتُ أنّك لم تكن قد أخذت منّي كلّ شيء.

كان بوسع اليد الحديدية أن تبدأ.

رحلت فلورانس وبما أنّك كنت قد حرمتني من جواز السفر، منعتني من اللحاق بها إلى باريس. ولكنّك تعرف ذلك أفضل منّي، بأنّ حالات حبٍّ كتلك لا يكبّلها أيّ شيء.

بعد ثلاثة أسابيع من صعقة الحبّ، عادت الصعقة. عادت فلورانس لأجل جولةٍ غنائية. التهديدات التي وجّهت لها بألاّ تعاشرني لم تتحكّم بشعورها. سألت عن جريمتي. سألت إن كنتُ قد سدّدتُ ديني للمجتمع. حسب الإجابات التي قُدّمَت لها، اعتبرت أنّ عقابي كان شديداً. اعتبرتني بريئة الذمّة اتّجاه كلّ إنسان. قبل أن ترحِّلها، حظيت بالوقت الكافي لأن تمنحني علامات الحبّ. أن تنقذني. حظيت بالوقت لتضع وجهي أمام المرآة: «لا تملكين الجرأة على الموت، لا تملكين الجرأة على

الحياة وفي الحياة، في هذه الحياة، لا بدّ من الاختيار»، قالت لي قبل أن ترحل دون رجعة.

كنتُ أعتقد أنني قد عشت. اعتقدتُ بامتلاكي للتجربة المعيشة. كنتُ مقتنعة بكوني شجاعة وأبيّة. اعتقدتُ أنني قادرة على إعطاء الدروس في الأخلاق والسلوك الحسن للعالم أجمع. اكتشفتُ نفسي ضحيّة هامدة. اكتشفتُ نفسي حزينةً ومثيرةً للشفقة. ضحية وحيدة، متعبة ومثيرة للرثاء.

لم تكن النتيجة باهرة.

أردتُ أن أتألّق لكي تحبّني أكثر.

بكيتُ طويلاً رحيل فلورانس وحقيقتها. تجاوزتُ ميولي الإجرامية. اخترتُ أن أهرب. كان بوسعي أيضاً أن أختار الموت ولكنني كنتُ أحبّ. كنتُ أحبّها. خفق قلبي الصغير بقوّة، بقوّة، بقوّة، ولم يعد يريد التوقّف في الطريق.

بتواطؤٍ من صديقة وفيّة ودون أن أُعلِم عائلتي بذلك، حاولتُ الفرار مع رفيقي، في 10 كانون الأوّل (ديسمبر) 1995، اليوم العالمي لحقوق الإنسان. نُصِحنا بهذا التاريخ من قبل محاميَّ الجديد. أوقِفنا على الحدود وتقاذفتنا مفوّضيات سياسية طوال خمسة أيام. بسبب إضرابٍ لوسائل النقل في فرنسا، لم يعقد السيد ك. المؤتمر الصحفي المتّفق عليه في حال انقطعت أخبارنا بعد أربع وعشرين ساعة. لم يكن خبر كهذا ليتسرّب. كانت العودة إلى الأصول لا تُطاق. تعرّف إليّ أحد الحرّاس وعانقني عناقاً حارّاً: «أوه! منذ زمنٍ طويل ونحن نفتقدك، كيف

حالك، الآن؟» أنا بخير. رفع العصابة عن عينيّ، وفكّ القيود عن معصميّ بلطف. وكدليل تعاطف، سمح لي أن أسلّمه بنفسي أربطتي وحزامي. وضعني في زنزانة منفردة. كان رفيقي محبوساً في آخر الممرّ. قدّم لي الحارس، الذي افتقدته، طبق بيتزا للعشاء. رفضتُ أن آكل وسلّمته علبة سجائري. هكذا رفضتُ في الحال وسائل الضغط التي قد تُستَخدَم ضدّي. هذا أشبه بركب الدراجة والسباحة، إنّه لا يُنسى. كلاّ، إنّه موثوقٌ أكثر. حينما امتطيتُ الدراجة، تهشّم شدقي. وحينما غطستُ في مسبحٍ، غرقتُ عمودياً. هناك، جرى ذلك وحده، كانت ردود الفعل محتومة.

أمضيتُ الليلة الأولى في الزنزانة بالخوف على رفيقي. لم يكن بالطبع قد حظي بالتدريب نفسه الذي حظيت به. لا تزال صرخات الرجال الخاضعين للتعذيب تُفزِع. تواصلت الاستجوابات. كانوا يأخذون عليّ أنني أحببتُ فرنسياً وخُنتُ دين أبي. أمّا هو، فكانوا يحذّرونه من مثليتي الجنسية المحتَملة ويفتحون عيونه على حقيقة أنّني، حسب زعمهم، كنتُ أستخدمه للحاق بفلورانس. ظلّ يقاوم. حتى حينما هدّدوه بأنّهم سيدسّون مخدراً في حقيبته للحكم عليه بخمس سنوات من السجن، ردّد آرمان أنّه يحبّني وأنّه سيلتقيني بعد تلك الأعوام الخمسة. مرّت خمسة أيام. التقيتُ آرمان سليماً معافى في مفوضيّة للحقّ العام. غمز لي بعينه ليتأكّد من أنني بخير. جعلته لكمات في بطنه يندم سريعاً. لم تغيّر احتجاجاتي شيئاً. كان الحرّاس غاضبين ساخطين: الغمزات للعاهرات.

أُجلِسنا على مقعدٍ في مكتبٍ. أمسكنا بأيادي بعضنا المكبّلة.

طلبني للزواج.

بدا لي طلبُ الزواج، وأنا مكبّلة في مفوّضية مع حرّاسٍ كشهود، متناسقاً مع بقيّة حياتي. كنّا نضحك. كنّا نضحك في الحجرة نفسها حيث أناسٌ راكعون وموثوقو الأيدي إلى خلف ظهورهم يُرهَقون ليردّدوا بانقياد ما قيل لهم أن يقولوه. كنّا نضحك يداً بيد بانتظار دورنا. نُظِّم محضر ضبطنا دون أن نحظى بتلقّي ضربات. وقّعنا على وثائق باللغة العربية الفصحى دون أن نهتمّ بمضمونها. قادتنا المهزلة إلى المحكمة أمام مدّعي عام الملك. أوضح لنا هناك أنّ أيّ إجراء لن يُتّخذ ضدّنا شريطة ألاّ نكرّر الجرم. نصحنا بأن نخرج من المحكمة خلسةً مثل لصوص.

كانت نتائج ذلك الهروب الخائب مدهشة. أدار لنا الجميع ظهورهم. الجميع باستثناء أمّي وثلاث صديقات، فريدة وشيه وسندس.

خسرتُ زبائني. لم يعد لديّ الكثير من الخيارات البديلة واستقر شرطيون أسفل بيتي ليل نهار. لم يصمد الحب أمام ذلك.

طلبتُ من آرمان الرحيل إلى الجمهورية.

الفصل الحادي والثلاثون

وِلِدتُ في 13 تموز (يوليو) 1996

ثمّ التقيتُ ذات يوم سيلڤي واستحوذ الشّعر على حياتي. قالت لي: «امنحي لنفسكِ وسيلة أحلامكِ». شجّعتني سيلڤي على الحياة، وأحلامٌ تملأ الرأس. وضعت سيلڤي بين يديّ ما هو منيع وقدّمت لي مفتاحه: أن يمنح المرءُ نفسَه وسائل كلّ أحلامه.

بعد اكتشاف القدرة على الحب، وعلى اختيار العيش منتصبة القامة، أُتيح لي الحقّ في الحلم. كان لا يزال عليّ أن أقاوم، أقاوم، أقاوم. كان عليّ فقط أن أحدّد خياري وأقاوم.

تكهّنت لي سيلڤي بأنّ وصولي إلى فرنسا سيكون خلال خمسة عشر يوماً على أبعد تقدير. كنتُ أحبّ سيلڤي بالأساس كثيراً وحذّرتها من أن تجعلني أحلم. لمرّاتٍ عديدة، كانت عرّافات قد أقسمن لي إنني سأحصل على جواز سفرٍ وإنّ فرنسا ستكون وطني الجديد. عادت سيلڤي إلى باريس. بعد أسبوعٍ من ذلك، نجحت أختي التي تكبرني بأربعة عشر شهراً في الفرار بقاربٍ إلى أسبانيا، مصحوبةً بابنها وابنة عمّ أمّي. لم تسلّمهم حكومة آزنار. حمتها أسبانيا في قاعدة عسكرية، خلال الوقت اللازم لتسوية وضعها. لدى وصولها إلى باريس، حضرت وسائل

الإعلام لتغطية الحدث. أدلى وزير الخارجية الفرنسية هيرڤيه دو شاريت، الذي فوجِئَ بالأمر، بتصريح جديرٍ بالذكر أمام عدسات الإعلاميين: «منحتها أسبانيا تأشيرة شنغن، لا يمكن لفرنسا طردها.» عاشت الجمهورية وعاشت قرون الغزال!

بعد ذلك بخمسة عشر يوماً، سُلِّمَت إلينا جوازات سفرٍ. وحصلتُ على التأشيرة الفرنسية، ووصلتُ إلى باريس حيث جاءت سيلڤي وجامي مع كلّ أصدقائي لاستقبالي في مطار أورلي. كان النزول إلى الشانزيليزيه بتنورة قصيرة مع أغنية كوين The show must go إلى النهاية بناءً على طلبي تحت شمسٍ رائعة يوم ميلادٍ جديد.

وُلِدتُ في 13 تموز (يوليو) 1996 في باريس.

الفصل الثاني والثلاثون

إطفائيو باريس

في غضون بضع ساعات، تفاجأتُ بالتصرّف جيّداً. مشيتُ بشكلٍ مستقيم في الشارع دون أن ألتفت إلى الوراء ودون أن ألامس الجدران. هذا البلد بلدي. أمضيتُ ثلاثة وعشرين عاماً في المكان الرديء لأطأ أخيراً أرض عالمي، وهذا هو الجوهريّ هنا. اللقاءات رائعة. اصطحبتني سيلڤي إلى شارع لاب للاحتفال بأوّل رابع عشر من تموز (يوليو) لي. هلوست. وقعتُ في غرام كلّ إطفائيي باريس. ابتسمتُ، مغتبطة، متشبّثة بمقعدي. جعلتني جامي أكتشف فنزويلا، وصاحبتني فلورانس إلى لوبيرون، في مرسيليا وأجوانها الصخرية. حظيتُ بأصدقاء جدد، لا لما عانيته، وإنّما لما أكون. في باريس، امتلكتُ ستّ حُزَمٍ من المفاتيح، وأريكةً، وحساءً حينما أريد وفي الوقت الذي يناسبني. قضيتُ ستة أشهر حتى قبلتُ أن أستقلّ المترو، وتعلّمت الحركات اليومية، وآلفتُ هذا الكوكب الجديد. ثملتني شهورٌ من السير في شوارع باريس، يداي في جيوبي، دون أيّ إكراه. منحني أصدقائي الوقت وما ينجيني. أتناول ثلاث إلى أربع شطائر جامبون بالزبدة يومياً وأحتسي بيرة مبرّدة. أشاهد ليلاً ونهاراً كيف

ترقص من حولي باريس وجسورها، أحجارها القديمة، أنوارها، وحكايتها. أتأثّر. أترعرع. أتطوّر. أنا حرّة. أنا حرّة. الأمر على ما يرام، لم يعد لديّ أيّ شيء أنتظره. لم يعد بوسعي أن أشكو. أنا حرّة.

فرنسا، هي الفرنسيون. والفرنسيون يختلفون بعضهم عن بعض. والفرنسيات، متحرّرات حسب المراد. وأنا، لم يعد بوسعي أن أهاجم أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً لأجلي ما دمتُ لا أفعل شيئاً من أجل الآخرين. شغلتني حياتي جلّ وقتي. كانت إعادة بناء ذاتي أولويتي الوحيدة. العالم يدور ولا يتوقّف لأحدٍ، هذا ما تعلّمته. ولكن هنا، أنا لم أعد أتوقّف لأيٍّ كان. أعيش بعمقٍ وانتشاء.

من فرط ما تركوا لي الزمان والمكان آلفني أصدقائي. قبلتُ أن أصغي لنصائحهم الرقيقة. غالباً ما تردّدت عبارات «الضمان الاجتماعي». ولكنني لستُ مريضة. قضوا عاماً في إقناعي. بعد بعض المحاولات العقيمة في دار الأسطوانات بسبب كبر السنّ، اجتهدتُ في أن أندمج بالجمهور. تحدّيَّ الجديد هو أن أصبح ككلّ الناس، ككلّ الناس، مع SMIC والوئام.

كيف يمكن الحصول على مفتاح ذلك؟ بإيجاد وظيفة. للحصول على وظيفة، لا بدّ لي من سيرة ذاتية. لملء سيرة ذاتية، لا بدّ لي من تأهيل. لنيل تأهيل، لا بدّ لي من تثبيت مسكن. للحصول على مسكن، لا بدّ لي من حسابٍ في المصرف. لفتح حسابٍ في المصرف، يلزمني وضعٌ قانوني. بالنسبة إلى RMI، لا بدّ لي من الثلاثة للحصول على الثلاثة،

يلزمني الجميع. حتى أكون موجودة، لا بدّ لي من ماضٍ. برنار هو مَنْ سيمنحني وظيفتي الأولى. برنار هو شقيق فرانسواز، حارستي الملاك. أصبحتُ مضيفة استقبال في معرض باريس، بالتنورة القصيرة والماكياج المناسب. من المفترض أنني أمثّل ناشراً كبيراً. تلطّف برنار بأن أحاطني بأشخاصٍ لطفاء. بعد ذلك بثلاثة أسابيع، احتفلتُ بأوّل فيشة دفع لي لقاء الشمبانيا. خلال ثلاثة أسابيع من العمل، شُرِّعَت حقوقي في الضمان الاجتماعي. عملتُ عملاً شاقّاً جدّاً خلال واحد وعشرين يوماً، وكنتُ بحاجة إلى عطلة. يبدو أن هناك أناساً يعملون أربعين عاماً دون انقطاع. شجّعني أصدقائي على متابعة عملي الباهر. أتاحت حوالتي الأولى أن أفتح حساباً في المصرف. اخترتُ وكالةً بالقرب من مكان إقامتي في الدائرة 18 من باريس. سألتني السيّدة التي استقبلتني على الموعد عن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا المصرف دون سواه. بُحتُ لها بميلي إلى اللون الأزرق. بقي الصمت الذي تبع ذلك مؤثّراً. عرضت عليّ السيّدة عقوداً شتّى. عَلِمتُ في ذلك اليوم بأنني لن أحظى أبداً بالتقاعد وأنني سوف أُدفَن في حفرةٍ مشتركة. ورغم ذلك نجحتُ في فتح حسابٍ في المصرف. وفي الحال، حصلتُ على بطاقة زرقاء ودفتر شيكات... صفحاته زرقاء. في الحال، سافرت في عطلة مستحقّة تماماً إلى الجنوب، إي مرسيليا، عند فلورانس، لكي أبلّ من انفعالاتي.

لدى عودتي من مرسيليا، وضعتُ كلّ طاقتي لأعود مواطنة عادية. شجّعتني سيلڤي على أن أتقدّم إلى شهادة البكالوريا. نيلي لما يعادل البكالوريا سوف يفتح لي أبواب كلّ كليّات الآداب.

سأستطيع أن أدرس القانون. سيكون بوسع روحي المعذّبة وسوء نيّتي أن يجعلا منّي محامية ناجحة. حاكم! ستكون أمّي فخورة بي، ووالدي، حتى وإن لم يعد لديه رأي، سيستطيع أن يبتسم. الحافلة. السوربون. رتل الانتظار. حان دوري. مستوى الدراسة؟ الصفّ الثاني الابتدائي، آلبير كامو. الرباط. المغرب.

خلف المكتب، نظر إليّ طالبٌ أشقر بعينين واسعتين زرقاوين فارغتين.

«تركتُ المدرسة في الصف الثاني الابتدائي. أخيراً، أخرجوني من المدرسة... لا يهمّ، تعلّمتُ بنفسي. أرغب في أن أستأنف دراستي.»

جعله صدقي يفغر فماً واسعاً، فارغاً. خلفي، ملتصقين بي، ضحك طلابٌ صغارٌ جدّاً وكثيرون جدّاً، جعلوني أحمرّ خجلاً.

«أنا جاهزة لتقديم الامتحانات...»

رأف بي الشاب وغاب لكي يرجع إلى رؤسائه في الأمر.

خلفي، عيل صبر الرتل، وسرَت تعليقات. عاد الشابّ بعد خمس دقائق: لا يمكن للسوربون أن تستقبل أشخاصاً أوقفوا دراستهم في المرحلة الابتدائية.

في الحافلة، بكيتُ للإهانة والإذلال، للأجنحة المقطوعة والظلم وفوات الأوان. لن يستسلم أصدقائي. بتدخّلٍ من ميليس، قبلتني جامعة السوربون. تابعتُ دروسي في جوسيو. طلب منّي أستاذ اللغة الإنكليزية الذهاب إلى السبورة ورفضت. رفع أستاذي للغة الإنكليزية صوته وامتثلت. ذهبتُ إلى السبورة. بقيتُ منقبضة، وأنفي ملتصقٌ بالسبورة. لن يجعلني أيّ أستاذٍ

أعيش مرّة أخرى ذلك العذاب. حصلتُ على شهادتي DAEU بدرجة لا بأس بها. نلتُ شهادتي مع رسوماتٍ صغيرة حول اسمي، مثل الطفل الأوسم في السنة.

فسجّلت في كليّة القانون. بعد ستة أعوام، سأكون محامية. في منتصف الفصل الأوّل، علِمتُ بأنّه ليس من حقّ حائزٍ على RMI أن يتابع التعليم العالي. هرعتُ أطلبُ منحة، ولكنني كنتُ قد تجاوزت السادسة والعشرين من عمري. كيف يمكن تقديم المساعدة مالياً لأشخاصٍ في ضائقة ومنعهم في الوقت ذاته من الارتقاء؟ في صندوق بريدي، انتظرني مغلّفٌ مع شعار الجمهورية. ومثل كلّ مرّة أرى فيها شعار الجمهورية، ارتعشت يداي. كنتُ أرتجف خشية من أن أُطرَد. الرسالة صادرة من نانت. سيّدةٌ تكتب إليّ باسم الجمهورية، وبالشخص الأوّل: «لا يمكنني منحك الجنسية الفرنسية، لأنّكِ لم تُظهري استقراراً.»

ولكنني لن أكون أبداً مستقرّة. يلزمني مترجم. سيلڤي مختصة في القانون. ليكون المرء فرنسياً، عليه أن يدفع ضرائب. كتبتُ إلى السيّدة اوبري والسيدة كاترين تاسكات لطلب الطعن في القرار. سيّدتاي، لا يمكنني العودة إلى بلدٍ لا يزال يحكمه الرجل الذي فعل بي ما تعرفون أنّه قد يكرّر فعله...

بعد أسبوع، احزَر. لقد متَّ.

بادرتُ إلى الكتابة إلى وزيرة العمل والضمان وإلى رئيسة لجنة القوانين لأوضّح لهما بأنّ موتك لن يمنعك من إلحاق الأذى بي.

الفصل الثالث والثلاثون

مات الملك

كانت فكرةٌ حسنة منك أن تموت في وضح الصيف، في 23 تموز (يوليو).

في اليوم التالي لعيد ميلادي، أزال موتك سُكْري.

في 14 تموز (يوليو)، كنتَ لا تزال تنشر قواتك في الشانزيليزيه، بعد تسعة أيام، انطفأتَ فجأةً.

لا شيء يُفهَم في ذلك. الحياة، لا تتوقّف على شيء. حقّاً إنّها ليست الشيء العظيم.

كنتُ في بيغال مع أولاد خالي. لم أكن أعرف شيئاً عن رمقك الأخير، حسراتك الصغيرة، وداعك للآلهة، ذاكرتك الرائجة، زخارفك المنكّسة. كنتُ أعلم أنّك مريض، ولكن ليس إلى حدّ أن تموت. . . بالنسبة لي، كنتَ أبديّاً. كنت أعتقد أنّك غير قابلٍ للغرق، غير قابلٍ للموت.

مراهقان، وقد تدلّى لسانهما أمام بيب شوز pcep shows، لم يتجرآ على أن يطلبا منّي مرافقتهما. كنتُ سأذهب معهما،

ولكنّهما ليسا بالغين بعد. تجاوزت الساعة منتصف الليل. ارتجّ هاتفي وأعلن عن رسالةٍ. تطلب أمّي أن أتّصل بها بأسرع وقت. كنّا نشتري، أولاد خالي وأنا، شطائر وعلبة بيرة.

«- هل علِمتم؟ سأل البائع.

- علِمنا ماذا؟

- مات الملك.

- أيّ ملك؟»

كنتُ أعرف أن شعري مجعّد وبشرتي زيتية، بعينين سوداوين وصغيرتين، ولكن ليس إلى هذه الدرجة علامة مسجّلة. بدا بائع الشطائر مبهوراً وحزيناً. كان ملكاً عظيماً. طبعاً. فقدنا أباً. طبعاً. كان أب الجميع. الجميع. دفعتُ ثمن الشطائر والبيرة بأسرع ما يمكن لأختزل التعاطف. التزم أولاد خالي الحذر. رجلٌ مسكين، أبٌ مسكين. شكراً، احتفظ بالنقود. عاين البائع النقود وقدّرها، لم يعد أكثر انبهاراً أو أكثر حزناً منّي. اعتقدتُ أنني أرى رجال الشرطة في كلّ مكان. ابتعدنا بضعة أمتار. نزعتُ سدادة بيرتي. صرخةُ فرحٍ عالية. ضرب أولاد خالي أكفّهم بكفّي. أخيراً. اتّصلتُ بأمّي فأكّدت لي الخبر باقتضاب. الحذر نفسه على الهاتف. ذهبنا إليها. فتح أخي الباب لنا بادي الحزن. كانت الشقّة الصغيرة في حداد. تقتصر برامج الإذاعة على آياتٍ قرآنية، ضوء شاحب، محارم ورقية ودموعٌ صادقة. انتهاكٌ للحرمات. هل نعبّ هذه الشامبانيا؟ انتهاكٌ للحرمات. ولكن أخيراً! كنتَ محقّاً، لن تكون هذه هي النهاية أبداً. ازدردتُ بيرتي جرعةً واحدة. حاولت أن أجد معالمَ، نِسَباً، مقارنات،

أُطراً، مصادر، وأن أغذّي حواجزي بآخرِ فتاتٍ، وأفتّش عن وسائل التقييم، وأجد نظاماً معيارياً، حساباً، مقياساً، شيئاً ما، أحدَهم أو بعضهم قد يوضّحون لي جسامة السقوط، ارتفاع السقوط، إلى الأسفل، إلى الدرك الأسفل، وملامسة الأعماق السحيقة دون المزيد من الصدى بين الخير والشرّ. أبحث عن نظرة من هذا المكان قد تمنحني مخرجاً نهائياً لكي أتشبّث على الأقل بصباح الغد. أبحثُ لاعتقادي بأنني قد فقدتُ صوابي. في الحال، لم يعد لديّ ما أبحث عنه، أصابني الجنون. أرغبُ في القتل لأنّه لم يُنَل من حياتي. ما دام لم يُنَل بعد من حياتي. أحتاجُ إلى القتل لأنّ العالم برمّته يُثني على ذكائك الوضّاء ولأنّ بلاهتي تحثّني على الإيذاء لكي أكون موجودة، بكلّ حماقة.

بكيتُ على وسادتي. التهمتُ وسائدي. عزاء المرء أنّه يستطيع. لنقل إنّك دِستَ السجادة الحمراء لمجلسي الوطني. لنقل إنك خفّضت كلّ الولايات السباعية من الحكم في الجمهورية إلى رباعية. ولنقل إنّك وحشٌ. والقول بأنّك وحشٌ لا يخلو من سذاجةٍ. ولنقل إنّك كنتَ في مأمنٍ من طبّ الأمراض النفسية مثلي ومثل آخرين كُثر. ولنقل إنه قبل ثمانية أعوام، وتجنّباً لأن أشبهك، لم أطلق النار وسط الحشد. ولنقل منذ ذاكَ أحتفظ بإغواء ذلك. ولنقل إنّه منذ الجمهورية، لم أعد أدافع عن نفسي. ولنقل إنّه لانعدام الأدلّة بالتقادم، رُفِضَت شكاويّ من قِبل وكلاء النيابة المستقلّين والمنصفين. ولنقل إن بلادي غير قادرة على الدفاع عنّي. ولنقل إنّك مجنونٌ جُنَّ في حياته وبعد موته. ولنقل إن ذلك البلد الآخر الذي كنتَ تحكمه

هو بلدي أيضاً وإنّك دفعتني إلى أن أكرهه بفعل الذكريات التي حفرتها هناك في داخلي. ولنقل إن رفضي الخضوع لمنطق الدولة، هو خلق أعداء آخرين أكثر جنوناً ودناءةً منك. ولنقل كم تراجع مستقبلي. ولنقل إنّك متَّ ولم يعد لدي أحدٌ أتكلّم إليه. ولنقل إنّك متّ دون أن يتوجّب عليّ تلويث يديّ. ولنقل إنني أشعر بالوحدة دون غريم. أنا من دونك، أمرٌ غريب.

مَنْ تكون، أنت؟ انحرافٌ. مَنْ يكون، الجنون؟ إنّه هو. إنّه هم. في كلّ الأحوال ليس أنا. مَنْ هو، الموت بأطراف أصابعك؟ إنّه هو. إنّه هم. هو، أيٌّ كان سواي... لا أعرف عنه شيئاً. لا شكّ أنّه أحدٌ آخر ولكن ليس أنا. ليس الآن على كلّ حال. الحقد يستولي عليّ. يوجّهني. الأكثر حزناً من الميتّات، ستكون بالتأكيد أنا المفتوحة العينين هكذا. بالتأكيد لم تحن ساعتي، لا أرغب في ذلك الآن. لماذا؟ لأنني قاومتُ في سبيل حياتي. إنّها تساوي أكثر من أيّ شيء كان. توقّفي، لقد مات. يجب التشاور. لن أشاور، لأنّ المجنون مات، والمجنون ليس أنا. قضى الملك. جنونه يبقى في داخلي. مات الملك. لماذا عليّ أن أصدّقكم؟ إذا كنتُ مجنونة، فهذا يعني أنّ الملك لا يزال. انتهى الأمر. ماذا؟ انتهى الأمر. ماذا؟ اتّفقنا، ولكنّه حقّاً مات. لم أقتله. لا يهمّ، لقد مات. لستُ أنا، لم أفعل شيئاً. أعرف. اهدئي. لماذا؟ لأنّ الملكية ألبست الجمهورية ثوب الحداد. أنا مجنونة؟ كلاّ. أخيراً، نعم. أنتِ كذلك، ولكن ليس كليّاً. لماذا؟ لأنّك ما زلتِ تتألمين ولأنّك تشعرين

بذلك. ذات يوم لن تعودي تتألمين وحينذاك ستبلغين. إذا كان الملك قد مات حقّاً، مَنْ يكلّمني؟

الملك، ابنه.

آسفة، يا صاحب الجلالة، مع كلّ الاحترام الذي أكنّه لكم، امنحني الوقت لأقتنع بذلك. عليّ أن أتحقّق من أنّك محقّ.

قرّبتُ الصورة لأتأكّد من أنّه قد حُمّل عبئاً ثقيلاً. تأكّد على مدى أسبوعٍ على الشاشة الصغيرة من أنّه ليس في وضع الإيذاء. كان أبناؤه يرتدون الأبيض، لقد أحزنني أولاده. من الصعب جدّاً أن يفقد المرء والده، ليس هناك من الكلمات ما يعبّر عن ذلك. أحزنني حزنهم بعمق. الجرعة الأخيرة من البيرة قبيل الفجر. أطفأتُ التلفاز بعد أن تأكّدت من أنه لن يتمكّن من الإفلات. منهوكةً، انزلقت براءتي القديمة أكثر بقليل إلى الزاوية الميّتة. ستكون مازارين بانجو وهي تتحدّث في التلفاز عن كتابٍ مخصّصٍ لعائلتنا الوحيدة التي وجدت مكاناً للوجود في عائلة أوفقير: الزاوية الميّتة.

حبستني الزاوية الميّتة مرّة جديدة.

الفصل الرابع والثلاثون

سأكون مغنّية

الكبار كبارٌ جدّاً والسفلة سافلون جداً. ولا منزلةَ بين المنزلتين. الإحساس بكوني طفلة وعجوزاً بالتناوب. وهذه الهاوية الدائمة. عشرون عاماً من الشاشة السوداء والاستحالة الجسدية والمعنوية لردمها.

انشطر العالم من جديد وبات متناقضاً، غير كافٍ. كان عالمي، من العالم، قذراً جدّاً، بالتأكيد، ولكنّه كان عالمي. العالم الآخر، عالمهم، حسناً عالمنا من الآن فصاعداً، محصور. منظوراً إليه من الزنزانة، كان هناك خارجٌ. منظوراً إليه من الداخل، هناك دائماً خارجٌ للبداية، للسبب والقصدية. ما إن نصبح في الخارج، لا يعود هناك شيءٌ سوى الخارج. والخارج ضيّق. ضيّقٌ للغاية. فيه إفراطٌ في القوانين، في الحدود، في الألوان التي يجب تمييزها، في المخاوف المتلازمة، في كلّ شيء، في لا شيء، في البؤس، في السلطة، في القنابل والصمت. إفراطٌ في الآلهة للاستغلال. هناك الكثير جدّاً من التيستوسترون في حُجيرة صغيرة. بصراحة، ذلك العالم صغيرٌ جدّاً بالنسبة لي. أختنق فيه.

أشعر فقط أنني أكثر حريّة من ذي قبل.

شيءٌ من الفضاء. يلزمني شيءٌ من الهواء ومن الفضاء.

ما زال الفضاء باقياً. مليونا دولار لمغامرة ارتياده.

هناك ملكٌ جديدٌ في المغرب. هو في عمري. يعرف جيّداً الحاجة للفضاء. الفضاءات محدودة أيضاً. أعتقد أنّه يجب مخاطبته بجلالته. ينادونني «سيّدة» منذ أولى التجاعيد في وجهي. صاحب الجلالة، الجمهورية، أخيراً، رفض النوّاب العامّون للجمهورية شكويين مقدّمتين لدى المحاكم الفرنسية بفارق عشرة أعوام بينهما. رُفِضَت الأولى لعدم توفّر الأدلة. ورُدّت الثانية بالتقادم.

صاحب الجلالة، شكراً على تدوين RIB خاصّتي. مليونا يورو. أحتاج إلى مليوني يورو لشراء بطاقة إلى الفضاء لكي أذهب وأرى الأرض من علٍ.

انتبهي، هذا من التملّق.

مطلقاً. لم يعد هناك مَنْ يفهمني سوى ابنك. حسناً، بهذا المبلغ، سوف أبتاع أيضاً زريبةً في منطقة الثّوج وبضع إبر بوتوكس.

اسكتي.

وآسفاه، لا وسيلة للهزل. طابت ليلتك. إلى اللقاء غداً.

ماذا تبقّى لي لأعيشه؟

سوف أنبش في ذاكرتي.

«امنحي نفسكِ وسائل أحلامكِ»، كانت سيلڤي تقول.

أين أحلامي؟ أين طفولتي؟ في أيّ علوٍّ أو عمقٍ تركتُ الطفلة النائمة في أعماقي. تبّاً، أين هي الصبيّة التي كانت تضحك لأتفه سبب؟ أين هي الفتاة المسترجلة؟ ماذا كنتُ أريد، عاليةً مثل ثلاث تفاحاتٍ حول المسبح الشبيه بالفاصولياء؟ ماذا كانت تريد الفتاة الصغيرة الثريّة؟ ماذا تريد الآنسة التي تُنادى «سيّدة» في المخبز؟ ماذا بوسع الحيوانة المدجّنة؟ بماذا تطالب، الضحية المنهكة؟ كانت تريد. . . أن تغنّي. قولي ذلك بصوتٍ أقوى! حسناً. . . أريد أن أكون، سوف أكون مغنّية.

شرعتُ بكتابة فهرس. تلقّيت دروساً في القيثارة والغناء. وقمتُ بتدريبات. وراكمتُ المعلومات التي لا أفهم شيئاً فيها. تنفّسي من ظهرك. تمثّلي نفسك. تجرئي على التقدّم نحو الضوء. كوني أنتِ. لا تغشّي. حرصت ليدي على أن تعلّمني الاندماج. استبسلت ليدي في إسقاط سلاحي. قضت ليدي ثلاثة أعوام في جعلي أبكي علناً.

من بين المتمرّنات، من بين الشاهدات، هناك ليزيان.

ليزيان عازفة كمنجة ومغنّية. كانت ليزيان تملك دقّة حائزٍ على الجائزة الأولى في الكمان، شالٌ هرمسيٌّ حول رقبتها، وبنطال جلدي مقولب على جسمها والنجمة الصغيرة تتلألأ في قاع عينيها الزرقاوين. لا ترتجف كهيكلٍ عظميّ حينما يحين دورها في أداء أغنية أمام عشرة أشخاص. اعتادت ليزيان على الجوفيّات[1] والأطباق التلفزيونية. باستثناء صباح الخير، لم يكن

(1) جوفيّ: صفة تُطلَق على بعض الفرق الموسيقية الكبيرة التي تعزف الأعمال الكلاسيكية. المترجم

هناك ما نتبادله من كلام. ثمّ، عرضت عليّ ذات يوم أن أعزف على الكمان واحدة من مقطوعاتي.

صمتت.

«أثق بكِ»

احتجتُ إلى علبة بيرة. ابتسمت. شربتُ بيرتي. لا يمكن عزف شوبان والرغبة في مصاحبة الألحان الثمانية المكتوبة بأوتار القيثارة الثمانية وحدها التي أعرفها. معرفتها بالموسيقى جعلتني أبتسم، متشكّكة، وأن أطلب علبة أخرى من البيرة. مَنْ يمكنه الثقة بشخصٍ بدأ حياته من النهاية؟ احتجتُ إلى بيرةٍ أخرى. الثقة بي ليست عقلانية. لا تبدو على التوليفة علامات الثقة بي. مع ذلك، وثقت بي. تركتني ليزيان لعلب البيرة خاصّتي ولكلّ ارتيابي.

احتجتُ إلى بعض الوقت لأقتنع بصحّة عرضها. احتجتُ إلى أشهرٍ لأقتنع بصدقها.

كلّما كتبت توزيعات الأوتار على معزوفاتي، كلّما سمعت تلك التوزيعات، أحسستُ أنّني أؤمن بذلك: ليزيان تثق بي. ليزيان تثق بالحياة خارج الملاك وخارج الصولفيج. غدت ليزيان شيئاً بعد شيء دماغي، موقّتتي الموسيقية، حلقتي الثالثة. لم يكن هناك تأخّرٌ واحدٌ أبداً عن الدروس المكرّرة، لا راتب، لا مطلوب ولا مكتَسَب، وطوال ثلاثة أعوام تنامى ذلك الإحساس في داخلي بأنّه لا يمكننا الإحاطة بمَنْ يثق بنا. واحدة من الوحيدات التي تشاركك إيمانك العميق، وتمشي بصمت وبالتوازي، باتّجاهٍ معاكسٍ نحو مكانٍ مشترك. أقمنا حفلاتٍ معاً. كان لديها طفلٌ

طلبت منّي أن أكون عرّابته. قبِلتُ، جريئةً، أن أكون عرّابة ابنها الذي لم يطلب شيئاً. وحينما استمع جان جاك إلى تصاميمي وأُعجِب بكلّ معزوفاتي على الكمنجة - كمنجتي - حصلتُ على الدليل بأنّ ليزيان كانت محقّة تماماً في ثقتها بنفسها.

ليزيان. لا تزال امرأة تُركعني شجاعتها. لا تزال صديقة تبيح لي مستقبلاً.

الفصل الخامس والثلاثون

ثلاثة وأربعون عاماً

حزني الغراميّ الأوّل وإعلان سنّ يأسي قُدّما لي في الساعة ذاتها. يظلّ سن اليأس غير محتملٍ، وحزن الغرام مستحيلاً. من المستحيل، من غير المعقول إلى ذلك الحين بالنسبة لي أن أحبّ أحداً كفّ عن حبّي. حتى بمراهقتي الأبدية: اذهب إلى الموت، اذهب إلى الموت يا سنّ اليأس، أنا صغيرة جدّاً عليك.

ستة أشهرٍ انقضت من النوم لساعتين أو ثلاث كلّ ليلة، الحرّ شديد، والبرد مباشر، القطرات المتجمّدة أسفل الكليتين، المسند الملقاة، مسند قميص النوم، الموازنات الهرمونية، سقوط الهرمونات، الساعة ذات المحرّك، وميناؤها السليم، رشّاش الحمّام لئلاّ نولول، رشّاشات الحمّام لنتجفّف، الجفّاف أيضاً. أسفل البطن الذي يدور عبثاً. الدماغ الذي لم يعد يتابع. ثمانية عشر عاماً حبيس الرأس والجسد الجافّ بشكلٍ نهائيّ. كان الحكم بلا دعوة. أطلقتُ الدعوة: أريد أن يكون لي طفل، الآن وحالاً. فات الأوان. لم يفت الأوان قط. اتّفقنا، ليس لديّ الأب، ولكنّ الأب موجودٌ في مكانٍ ما وأنا لم يعد لديّ الوقت.

أرى الحيوانات المنوية في كلّ مكان. المليارات من الحُوَيْنات المنوية المتحرّكة تحت فتحات السراويل في قطار الأنفاق، في الشارع، في أحلامي. لا أحتاج إلى المليارات من تلك الأشياء الصغيرة. أريد واحداً منها. واحداً. أريد واحداً فقط من تلك الحوينات الصغيرة المجهرية. حُوَيْنٌ منويّ واحد، المناسب، قد يحقق سعادتي في أن أصبح أمّاً.

فات الأوان.

في حُجيرة الطبيبة، سُمِح لي أن أبكي لمدّة مناسبة. وحتى هناك، في تلك الخلوة المحمية، اعتذرتُ لذلك. اعتذرتُ لارتعاشي في كل أنحاء جسدي، وأنا أبكي. لم يكن مرضي مرضاً حقيقيّاً. كان مرضي جزءاً من سير الأحداث ويصيب كلّ الناس. ولكنني لستُ كلّ الناس. لن أكون قطّ كلّ الناس. لم أنجح في أن أكون كلّ الناس. حينما يعجز الأطبّاء عن المعالجة يواسون. طبيبتي تحبّني. لم تقبل طبيبتي قطّ أن تتقاضى منّي أتعاباً. طبيبتي تُدعى ماري- فرانس وحينما يكون اسمنا ماري فرانس، نجد الكلمات للتعبير عن ذلك. فتحت لي طبيبتي آفاقاً. قارنت التحاليل، وأكّدت سنّ اليأس، واقترحت عليّ شراء بُويضة من أسبانيا. لستُ مستعدّة لخيار البيض الطازج المصطحَب إلى الحدود. أتألّم بين العقارب القاطعة لساعة حائط تدور وتدور ومع ذلك تدور. أستشيط غيظاً بين العقارب الهشّة لهذه الساعة القاطعة، القاطعة، القا...

أكّدت لي ماري فرانس أنّه في سنّي، أصغر أو أكبر ببضع سنوات، تنتهي القصّة بالنسبة لكلّ الناس من أمثالي. لم يعد لديّ

الصوت لأسأل إن كانت القصّة قد بدأت بالنسبة لكلّ الناس من أمثالي. بالنسبة لكلّ الناس من أمثالي. أكّدت لي طبيبتي أنني محظوظة. لديّ الحظ الأكيد بعدم المجازفة بإنجاب طفلٍ مشوّهٍ إلى الدنيا. في سنّي.

وإذ لم يعد حظّي يحتاج إلى برهان، رأيتُ في عجزي إيجاباً.

ولكن يا إبليس، أنا أولَد.

هذا الطفل، لم يكن بوسعي بعد كلّ حساب أن أجعله يرى النور دون أن أؤمّن له خلفيات. لم يكن بوسعي أن أمنحه الحياة في وضح النهار، دون حماية. هذا الطفل، الوحيد، طفلي، حميته من كلّ شيء، من كلّ شيء، ومن نفسي، بعناية وحرص، في كلّ واقٍ. هذا الطفل، لا يمكنك أن ترفضه لي. منحتُ نفسي الوقت. لمرّة واحدة، منحتُ نفسي وقتاً. هذا الطفل، طفلي، كنتُ أحبّه حتى أنه لم يكن بوسعه، دون طلب أيّ شيء، أن يتدحرج في ماضيَّ، وينسحق، ويختنق تحت وطأة اسمي قبل حتى العنايات الأولى التي سأكون قد أغدقتُ عليه بها. اليوم، كبرت. فهمت. فهمتُ الكثير من الأشياء حتى وإن لم أفهم كلّ شيء. اليوم، لأنني اخترته، أمتلك العالم بين يديّ. استعدتُ قواي. لديّ أجنحة. أجنحة دجاج. إنّها أجنحة بعد كلّ حساب. أريدها، هذه البضعة منّي. من فضلك.

أنا على أتمّ الاستعداد لمولدنا الثاني.

فات الأوان.

تزحلقٌ. أحدٌ ما شمّع الدرجات. أخفقت هرموناتي في

صعود درجٍ. حسنٌ إذاً يا رفيقاتي، لنكن يقظات، المعركة لم تنتهِ. انزلقَ مبيضاي من قمّة أنوثتي إلى قدمَيّ، منهكين قبلي. لا يهمّ، لم يفت الأوان أبداً. أبداً. لن أستسلم. سأعمل من دونهما. سأعمل بدون هاتين القطعتين الصغيرتين من المبيضين اللذين ينحنيان لأوّل حكم من الأطباء المحنّكين الأربعة. يعرف المرء حقيقة أصدقائه في الأوقات العصيبة. بعد أن آلموني لاثنتي عشرة مرّة كلّ عام، طوال ثلاثين عاماً، تخلّوا عنّي في أسوأ لحظة.

أنا مستعدة لكي أمنح الحياة، أخيراً.

فات الأوان.

شمّاعٌ ماهرٌ جدّاً للأرضية، لا أعرف إلاّ واحداً. عجباً، أينَ أنت؟ لقد متّ على ما قيل لي ورُدِّد. كم سنة مرّت؟ لقد اعتزلت منذ ستّ سنوات، على ما قيل لي. مع ذلك. كيف نجحت في إفشالي في هذه الدرجة الأخيرة من تحت ثلاثة أطنان من المرمر؟ أنت قويٌّ جداً. قويٌّ جدّاً. أنت الأقوى. آمين. هذا المساء، يمكنني حتى القول بأنني أشتاق إليك. أشتاق إلى فمك الصغير. لديّ رغبة قوية في أن أربّت عليه بقبضتيّ. عُد إلى مستوى عمري وسترى كما ستضحك عندما سأحطّم أنفك. الكلّ يعرف أنّه من الممكن ترميم أنفٍ مكسور. فقط عُد للحظة وقابلني وجهاً لوجه. عُد، فالحياة جميلة جدّاً. عُد الآن وأنا عجوز. عُد، يا مليكي. تعال وانظر كم السماء زرقاء. والبحر، السوط، حُرقة الشمس على الجسد، هل تتذكّر ذلك؟ إنّه ممتعٌ للغاية، يا

صاحب الجلالة، أؤكّد لك. إنّه ممتعٌ للغاية أن نرى البحر. مثل آثار الزبدة تحت المربّى. تعالَ وشاهد، إن استطعت، حينما تشاء، الفتاة الصغيرة والزمن الذي يمرّ.

الزمن الماضي.

تعال وشاهد جمال العالم.

تعال وشاهد كم هناك الكثير ممّن يشبهونك. ولستُ أنا. ليس بعد. تعالَ، مَنْ يدري، هناك دائماً متّسعٌ للوقت لكي يُحسن المرء صنعاً.

الصمت.

أَلا تقول شيئاً، لأنّك لو عدت، سألتَهِمُ عينيك ولن تعود ترى شيئاً؟

الصمت.

هيّا احلف اليمين، إن وعدتَ بأن تكون لطيفاً مع الأولاد، لن ألتهم سوى عينٍ واحدة.

الصمت.

هل حرِدتَ؟

...

الآن تخشّب مبيضاي ولا بدّ أنّ الحزن الغرامي يساعدهما قليلاً في ذلك.

حزمتُ أمري في مشاعري وحناني، وإعادة بنائي. لم أنجب وريثتي أو وريثي. هذا خطئي، لقد أهدرتُ وقتاً. يبدو أنني أهدرتُ الكثير من الوقت أو أنّ الكثير من الوقت أهدرني.

لا يهم، فقد زرتُ البلاد وأكلتُ في أفخم المطاعم،

ورقصتُ في علب الليل مع عروض دراغ كوين Drag Queen عاشرتُ نجوماً، شتمت، جبتُ باريس لأكثر من خمسمئة ليلة باستمرار ويداي في جيوبي دون قيودٍ أو ضغوط، نمتُ عارية على الأجوان الصخرية لمرسيليا، نزلتُ بالطوّافة إلى الأورينوك المليء بالكركند بغزارة، سحقتُ فقاعات الشامبانيا المؤرّخة، انطلقتُ كالكلبة السلوقية في الهواء الطلق، استمتعتُ بأول جرعة من بيتروس 75 في لوس أنجلوس، أحسنت، وأسأت، رميتُ الحجاب في المتوسّط، ارتديتُ البرادا، نمتُ في الحرير، استيقظتُ على النشوة الجنسية، متفاجئةً بالـSMIC، نمتُ ثانية منفردةً، استنشقتُ الهواء ملء رئتيّ. الـRMI أيضاً. لقد عشت. عشتُ أكثر ما توقّعت.

كلُّ ثانية هي بمثابة هديّة.

خاتمة

احتفلتُ بأعوامي الأربعة والأربعين في كورسيكا.

في بورتو فيكيو، على شاطئٍ أسطوري، قدّم لي صديقاي الدائمان، سامي وليونيل، الرحلة والكركند المشويّ وخمسة وعشرين مدعوّاً، والمتوسّط على مدى البصر والشامبانيا المبرّدة في الظهيرة.

أنار سامي وليونيل حياتي. سدّا كلّ حاجاتي. معهما، تنفّست من كلّ أنحاء جسدي. بينهما، صادفتُ نظرة رجلٍ.

صادف رجلٌ نظرتي. استوقف كورسيكيّ نظري. إنّه وسيمٌ، أشقر، شابّ، ولِد في كينيا، جريء ومسحور. وساحر. سُحِرت. استوقفتُ نظرته، توقّده، واحتشامه. كان جدّه قد ساعد أبي على إعادة إعمار أغادير بعد الزلزال الذي ضربها، سنةَ ميلادي.

أنا مسنّة جدّاً بالنسبة له. لستُ جميلة بما فيه الكفاية بالنسبة له. أشخر بقوّة ويسيل لعابي في الليل. أتمنّى له الخير. أتمنّى له أفضل ممّا لي.

ربّما لأنني مع ذلك أحبّه...

المحتويات



سُكَيْنة أوفقير

الحياة بين يديّ

أكتب هذه الصفحات لأنني في منتصف الطريق حتى قبل أن أشرع في الحياة.

أكتب هذا الكتاب لأنني عشتُ كثيراً. بل وكثيراً جدّاً.

أكتب هذا الكتاب لأموت وحيدةً. فخورةً. منتصبةً. أبيّة على ما أتمنّى. هادئةً. سعيدةً.

لكلٍّ طموحاته، وعيوبه، ومباهج تجربته.

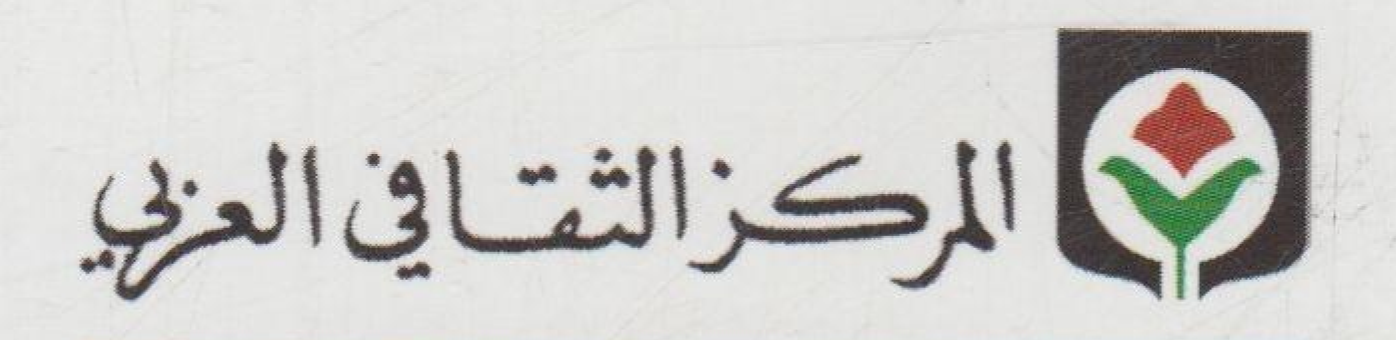
لا أكتب هذا الكتاب لكي يحسدني الناس أو يشفقوا عليّ أو يجدوا أنفسهم في مصيري.

لا أكتب هذا الكتاب ليُعجبَ الناس بي. وفي كلّ الأحوال، ليس لإثارة الإعجاب بمقاومتي في تحمّل المحنة، والمصائب، لأننا، بكلّ بساطة، نتحمّل كلّ شيء، كلّ شيء، حينما لا يُترَك لنا من خيار.

قبلتُ كتابة هذا الكتاب لأنني بقيت على قيد الحياة. ولأنني اخترتُ الحياة.

بكلّ ما قد يبقى لي من عيوب، أكتب هذا الكتاب لها. هي الصغير، الطفلة التي كنتها.

أكتب حياتها لأنّها الوحيدة التي تركت الحياة بين يَدَيّ.





الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب: 113/5158

www.ccaedition.com

markaz@wanadoo.net.ma